وحياتَهُ كذلك. وإذا كانَ نزولاً لَيْسَ كمثلهِ نزولٌ فكيفَ تنفِي حقيقتَهُ»؟!(١).

والكلماتُ المذكورةُ باطلةٌ وعنْ حلى التحقيقِ عاريةٌ.

وزَعْمُ السَّقَّافِ أَنَّ مَنْ قالَ ينزلُ بذاتهِ أَنَّهُ مجسمٌ حلوليٌّ: قولٌ بلا علمٍ وكذبٌ وافتراءٌ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

والسَّقَّافُ وأمثالهُ لمْ يفهموا منْ نزولِ الخالقِ إلى السَّماءِ الدنيا إلَّا كمَا فهموا منْ نزولِ المخلوقاتِ، «وهذا عينُ التمثيلِ، ثُمَّ إنَّهم بعدَ ذلكَ جعلوهُ كالواحدِ العاجزِ منهم الذي لا يمكنهُ أنْ يجمعَ منَ الأفعالِ ما يعجزُ غيرهُ عنْ جمعهِ»(٢). وكذبوا في هذا الفهمِ، وضلُّوا في هذا الظنِّ والوهمِ الكاسدِ.

فإنَّ الله ﷻ قالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**يطوي الله عزَّ وجلَّ السمواتِ يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذهنَّ بيدهِ اليمنى، ثمَّ يقول: أنا الملكُ. أينَ الجبَّارونَ؟ أينَ المتكبِّرونَ؟ ثُمَّ يطوي الأرضينَ بشمالهِ ثمَّ يقولُ: أنا الملكُ أينَ الجبَّارونَ أينَ المتكبرونَ؟!**»(٣).

---

(١) مختصر الصواعق (٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٨).

سحب رابع

فمنْ هذهِ عظمتهُ، كيفَ يحصرهُ مخلوقٌ مِنَ المخلوقاتِ. سماءٌ أو غيرُ سماءٍ؟! حتَّى يقال: إنَّهُ إذا نزلَ إلى السماء الدنيا صارَ العرشُ فوقهُ، أو يصيرُ شيءٌ مِنَ المخلوقاتِ يحصرهُ ويحيطُ بهِ ﷻ[١].

واللهُ ـ ولله المثلُ الأعلى ـ أعظمُ منْ أنْ يظنَّ ذلكَ بهِ، وإنَّما يظنُّهُ الـذيـنَ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧][٢].

قالَ شيخُ الاسلام رحمه الله: العليُّ الأعلى العظيمُ، فهو أعلى منْ كلِّ شيءٍ، وأعظمُ منْ كلِّ شيءٍ. فلا يكونُ نزولهُ وإتيانهُ بحيثُ تكونُ المخلوقاتُ تحيطُ بهِ، أو تكونُ أعظمَ منهُ وأكبرَ، وهذا ممتنعٌ[٣].

فالمخلوقُ إذا نزلَ من علوٍّ إلى سفلٍ زالَ وصفهُ بالعلوِّ وتبدَّلَ إلى وصفهِ بالسُّفولِ، وصارَ غيرهُ أعلى منهُ.

والرَّبُّ تعالى لا يكونُ شيءٌ أعلى منهُ قطُّ، بلْ هوَ العليُّ الأعلى، ولا يزالُ هوَ العليُّ الأعلى مع أنَّهُ يقربُ إلى عبادهِ ويدنو منهم، وينزلُ إلى حيثُ شاءَ، ويأتي كما شاءَ. وهو في ذلكَ العليُّ الأعلى، الكبيرُ المتعال، عليٌّ في دنوِّه، قريبٌ في علوِّهِ.

فهذا وإنْ لمْ يتَّصفْ بهِ غيرهُ فلعجزِ المخلوقِ أنْ يجمعَ بينَ هذا وهذا. كمَا يعجزُ أنْ يكونَ هو الأولَ والآخرَ والظاهرَ والباطنَ[٤].

وقَالَ ابنُ القيِّم رحمه الله: **ونزولهُ كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا سلامٌ ممَّا يضادُّ**

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٢٤).

علوَّهُ، وسلامٌ مما يضادُّ غناهُ وكمالهُ، سلامٌ منْ كلِّ ما يتوهَّمُ معطِّلٌ أو مشبِّهٌ، وسلامٌ منْ أنْ يصيرَ تحتَ شيءٍ أو محصوراً في شيءٍ. تعالى الله ربُّنا عن كلِّ ما يضادُّ كمالَهُ(١).

فتبيَّنَ بهذا الكلامِ النفيسِ، بطلانُ ما ذكرهُ السَّقافُ؛ وأنَّهُ مبنيٌّ على شفا جرفٍ هارٍ منَ الخيالاتِ والأوهامِ.

وليتأمَّل السَّقافُ وأمثالهُ منْ أهلِ الكلامِ الأثرَ التالي:

قالَ محمَّدُ بنُ حاتمِ المظفريُّ: سمعتُ عمرو بن محمد يقولُ: كانَ أبو معاوية الضريرُ يحدِّثُ هارونَ الرشيد، فحدثَّهُ بحديثِ أبي هريرةَ: «**احتجَّ آدمُ وموسى**»(٢) فقالَ عليُّ بنُ جعفرٍ: كيفَ هذا وبينَ آدمَ وموسى ما بينهما؟! قالَ: فوثبَ بهِ هارونُ وقالَ: يحدِّثكَ عَنِ الرسول ﷺ وتعارضهُ بكيفَ؟! فما زالَ يقولُ حتَّى سكتَ عنهُ(٣).

قالَ المحدِّثُ الصابونيُّ معقِّباً: هكذا ينبغي للمرءِ أنْ يعظِّمَ أخبارَ رسولِ الله ﷺ ويقابلها بالقبولِ والتسليم والتَّصديقِ، وينكرُ أشدَّ الإنكارِ على منْ يسلكُ فيها غيرَ هذا الطريقِ الذي سلكهُ هارونُ الرشيدُ رَحِمَهُ اللهُ معَ مَنِ اعترضَ على الخبرِ الصَّحيحِ الذي سمعهُ بـ«كيف»؟! على طريقِ الإنكارِ لهُ، والابتعادِ عنهُ، ولمْ يتلقَّهُ بالقبولِ كمَا يجبُ أنْ يتلقَّى جميعُ ما يردُ مِنَ الرسولِ ﷺ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٣٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٩ و٦٦١٤ و٧٥١٥) ومسلم (٢٦٥٢).

(٣) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٨١)، وعنه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٤٣) من طريق آخر وبألفاظ مختلفة، وإسناده صحيح. انظر: «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص١٢٧)، تحقيق: بدر البدر.

سحب رابع

جعلنا الله سبحانهُ مِنَ الذينَ يستمعونَ القولَ ويتَّبعونَ أحسنهُ ويتمسَّكونَ في دنياهم مدَّةَ حياتهم بالكتابِ والسنَّةِ، وجنَّبنا الأهواءَ المضلَّةَ والآراءَ المضمحلةَ والأسواءَ المذلَّةَ، فضلاً منهُ ومنَّةً[١].

وفي ختامِ الرَّدِّ على الشُّبهاتِ الواردةِ على حديثِ التنزيلِ نقولُ وبالله التَّوفيق: إنَّ «**الحقَّ الحقيقَ الذي ينبغي عليهِ التَّعويلُ أنْ نؤمنُ بما وصلَ إلينا عنْ طريقِ محمَّدٍ رسول الله ﷺ، بأنَّ الله ينزلُ إلى السّمَاء الدُّنْيَا حينَ يبقى الثلثُ الآخرُ مِنَ الليلِ، ويقولُ: منْ يدعوني فأستجيبَ له؟ منْ يسألني فأعطيهُ؟ منْ يستغفرني فأغفرَ له؟!**.

ولا يغترُّ بما فاهَ بهِ: جمعٌ منْ أهلِ الكلامِ، ورهطٌ منْ أصحابِ الأوهامِ؛ **النَّاكبونَ عنِ الصِّراطِ السويِّ، والمنهجِ النبويِّ. الجامدونَ على سيرِ المنطقيينَ والمتفلسفينَ**، فإنَّهم بمعزلٍ عنْ طريقةِ السَّلفِ الصَّالحينَ، وعلى مراحلَ شاسعةٍ عنْ منهاجِ المتقينَ، الذينَ يؤمنونَ بالغيبِ وممَّا رزقناهم ينفقونَ.

فدعْ عنكَ نهباً صيحَ في حجراتهِ وهاتِ حديثاً ما حديثُ الرواحلِ»[٢].

* * *

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٢٧ ـ ١٢٨) تحقيق: بدر البدر.
(٢) السراج الوهاج (١٠/٥٠٩ ـ ٥١١).

سحب رابع

أَسئِلَةٌ مُهِمَّةٌ
تَتَعَلَّقُ بِحَدِيثِ النُّزُولِ

السؤالُ الأوَّلُ: هل نقولُ ينزلُ بذاتهِ؟

والجوابُ أنْ يقالَ: إنَّ قوله ﷺ: «**يَنْزِلُ ربُّنَا تبارك وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا..**» خبرٌ وقعَ عنْ نفسِ ذاتِ الله تعالى لا عنْ غيرِهِ. فإذا قلتَ: جاءَ محمَّدٌ، أي بنفسهِ جاءَ، لا مجرَّد أمرهِ وقصدهِ ونحو ذلكَ، ولله المثلُ الأعلى.

فقولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، هوَ خبرٌ عن ذاتِ الرَّبِّ تعالى فلا يحتاجُ المخبرُ أنْ يقولَ خالقُ كلِّ شيءٍ بذاتهِ. وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ [يونس: ٣٢]، قدْ علمَ أنَّ الخبرَ عنْ نفسِ ذاتهِ. وكذلكَ جميعُ ما أخبرَ الله بهِ عنْ نفسهِ إنَّما هوَ خبرٌ عنْ ذاتهِ.

فلا حاجةَ بنا أنْ نقولَ: استوى على عرشه بذاتهِ(١)، وينزلُ إلى السَّماءِ بذاتهِ، كما لا نحتاجُ أنْ نقولَ خلقَ بذاتهِ، وقدَّرَ بذاتهِ، وسمعَ وتكلَّمَ بذاتهِ، وإنَّما قالَ أئمَّةُ السنَّةِ ذلكَ إبطالاً لقولِ المعطِّلةِ(٢).

---

(١) قَالَ ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «الصّواعق» (٤/ ١٣٨٥): «أي: ذاته فوق العرش عاليةً عَلَيهِ».

(٢) مختصر الصواعق (١/ ٢٢٢).

سحب رابع

وممَّنْ صرَّحَ بالنزولِ بالذَّاتِ: الإمامُ ابنُ حامدٍ[١] والإمامُ عبدُ الجليلِ كوتاهُ.

قالَ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالَ السَّمعانيُّ: لما وردتُ أصبهانَ كانَ ـ كوتاهُ ـ ما يخرجُ منْ دارِهِ إلَّا لحاجةٍ مهمَّةٍ، كانَ شيخُهُ إسماعيلُ الحافظُ هجرهُ، ومنعهُ مِنْ حضورِ مجلسِهِ لمسألةٍ جرتْ في النزولِ، وكانَ كوتاهُ يقولُ: النزولُ بالذَّاتِ، فأنكرَ إسماعيلُ هذا وأمرهُ بالرُّجوعِ عنهُ فمَا فعلَ»[٢].

وهوَ في الحقيقةِ يوافقهُ على اعتقادهِ، لكن أنكرَ إطلاقَ اللَّفظِ لعدمِ الأثرِ بهِ[٣].

قالَ الذهبيُّ معلِّقاً على قولِ كوتاه السَّابقِ: «ومسألةُ النزولِ فالإيمانُ بهِ واجبٌ، وتركُ الخوضِ في لوازمِهِ أولى، وهوَ سبيلُ السَّلفِ، فما قالَ هذا: نزولهُ بذاتهِ، إلَّا إرغاماً لمنْ تأوَّلهُ، وقالَ: نزولهُ إلى السَّماءِ الدُّنيا بالعلمِ فقط، نعوذُ باللهِ منْ مراءٍ في الدِّينِ، وكذا قولهُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ونحوهُ، فنقولُ: جاءَ وينزلُ وننتهي عَنِ القولِ ينزلُ بذاتهِ، كما لا نقولُ ينزلُ بعلمِهِ، بلْ نسكتُ ولا نتفاصحُ على الرسولِ ﷺ بعباراتٍ مبتدعةٍ، واللهُ أعلمُ»[٤].

والمقصودُ: أنَّ الأحاديثَ صريحةٌ في إطلاقِ لفظِ النزولِ، ولم يردْ فيها لفظةُ «**بذاتِهِ**» فمنْ أطلقها إنَّما أرادَ بها الردَّ على الجهميَّةِ

---

(١) ذكر ذلك الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري» (٩/ ٢٧٨).
(٢) السير (٢/ ٣٣٠).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٨).
(٤) السير (٢/ ٣٣١).

سحب رابع

والمعطِّلةِ والمفوِّضةِ، ومنْ لمْ يطلقها فقدْ وقفَ مَعَ النُّصوصِ، مع إقرارهِ بإثبات معنى النزولِ.

السؤال الثاني: كيفَ نجمعُ بينَ قولِ النبيِّ ﷺ: «**تفتحُ أبوابُ السّمَاءِ نصفَ الليلِ، فينادي منادٍ: هلْ منْ داعٍ فيستجابُ لهُ؟ هلْ منْ سائلٍ فيُعطى؟ هلْ منْ مكروبٍ فيفرَّج عنهُ؟ فلا يبقى مسلمٌ يدعو بدعوةٍ إلَّا استجابَ اللهُ تعالى لهُ؛ إلَّا زانيةً تَسْعَى بفَرْجِها، أَوْ عَشّاراً**»[1]. وحديثِ النزولِ؟

قلنا: وأيُّ منافاةٍ بينَ هَذَا وبينَ قولهِ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا فيقولُ**» وهلْ يسوغُ أنْ يقالَ إنَّ المنادي يقولُ: «**أنا الملكُ**» ويقولُ: «**لَا أسألُ عن عبادي غيري**» ويقولُ: «**منْ يستغفرني فأغفرَ لهُ؟**» وأيُّ بُعْدٍ فِي أنْ يأمرَ منادياً ينادي «**هلْ منْ سائلٍ فيستجابَ له؟**» ثمَّ يقولُ هو سبحانهُ: «**من يسألُني فأستجيبَ لَهُ؟**» وهلْ هذا إلَّا أبلغُ فِي الكرم والإحسانِ: أنْ يأمرَ مناديهُ يقولُ ذلكَ، ويقولهُ سبحانهُ بنفسهِ؟ وتتصادقُ الرواياتُ كلُّها عنْ رسولِ الله ﷺ، ولا نصدِّقُ بعضَهَا، ونكذِّبُ مَا هوَ أصحُّ منهُ، وباللهِ تعالى التوفيق[2].

السؤالُ الثالثُ: كيفَ نجمعُ بين علوِّ الله على العرشِ ونزولهِ إلى السَّماءِ الدُّنيا؟

لا تعارضَ بينَ نزولهِ تعالى إلى السَّماءِ الدُّنيا في الثلثِ الأخيرِ منْ كلِّ ليلةٍ مع اختلافِ الأقطارِ، وبينَ استوائهِ عزَّ وجلَّ على العرشِ؛

---

(١) رواه الطبراني فِي «الأوسط» (٢٧٦٩)، وصححه الألبانيُ فِي «صحيح الجامع» (٢٩٧١).

(٢) تهذيب سنن أبي داود (٧/ ١٢٦ ـ ١٢٧) لابن القيم.

سحب رابع

لأنَّهُ سبحانهُ لا يشبهُ خلقهُ في شيءٍ منْ صفاتهِ، ففي الإمكانِ أن ينزلَ كمَا يشاءُ نزولاً يليقُ بجلالهِ في ثلثِ الليلِ الأخيرِ بالنسبةِ إلى كلِّ قطرٍ، ولا ينافي ذلكَ علوَّهُ واستواءهُ على العرش، لأننا في ذلكَ لا نعلمَ كيفيَّةَ النزولِ، ولا كيفيَّةَ الاستواءِ، بلْ ذلكَ مختصٌّ بهِ سبحانهُ، بخلافِ المخلوقِ فإنَّهُ يستحيلُ في حقِّهِ أنْ ينزلَ في مكانٍ ويوجدُ بمكانٍ آخر في تلكَ اللحظةِ كمَا هو معلومٌ، إلَّا الله عزَّ وجلَّ، فهوَ على كلِّ شيءٍ قدير. ولا يقاسُ ولا يمثَّلُ بهم لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤]، وقولهِ سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١](١).

قال إسْحاق بنُ راهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٣٨هـ): دخلتُ على ابنِ طاهرٍ فقال: ما هذه الأحاديث؟ تروونَ أنَّ الله ينْزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا؟ قلتُ: نعمْ، رواها الثقاتُ الذينَ يروونَ الأحْكامَ. فقالَ: ينْزلُ ويدعُ عرْشهُ؟ فقلتُ: **يقْدرُ أنْ ينزلَ منْ غيرِ أنْ يخلوَ منهُ العرشُ؟** قال: نعمْ. قلتُ: فلمَ تتكلَّم في هذَا(٢).

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعبدُ الله بنُ طاهرٍ ـ وهوَ منْ خيارِ منْ وليَ الأمرَ بخراسان ـ كانَ يعْرفُ أنَّ الله **فَوْقَ العَرْشِ**، وأشْكلَ عليهِ أنَّهُ ينزلُ لتوهمهِ أنَّ ذلكَ يقْتضي أنْ يخْلوَ منهُ العرشُ، فأقرَّهُ الإمامُ إسحاقُ على أنَّهُ فوقَ العرشِ، وقالَ لهُ: يقدرُ أنْ ينزلَ منْ غيرِ أنْ يخلوَ منهُ العرشُ؟ فقالَ لهُ الأميرُ: نعمْ. فقالَ لهُ إسْحاق: لمَ تتكلَّمْ في هذا؟

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٣/١٣٦)، فتوى رقم (١٦٤٣).

(٢) أخرجه الذهبي في «العلو» (ص١١٢٥)، وصحّح إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في «شرح حديث النزول» (ص١٥٢).

سحب رابع

يقولُ: فإذا كانَ قادراً على ذلكَ لمْ يلزمْ من نزولهِ خلوُّ العرشِ منهُ، فلا يجوزُ أنْ يعترضَ على النزولِ بأنَّه يلْزمُ منهُ خلوُّ العرشِ، وكان هذا أهْونَ من اعْتراضِ منْ يقولُ: ليسَ فوقَ العرشِ شيءٌ، فينكرُ هذا وهذا(١).

وممَّا ذكرنا يتضحُ لكَ أنَّهُ لا تعارضَ بينَ نزولِ الله تبارك وتعالى واستوائهِ على العرشِ.

السؤالُ الرابعُ: ما يستفادُ مِنْ حديثِ النزولِ؟

يستفادُ منْ حديثِ النزولِ ما يلي:

أولاً: إثْباتُ العلوِّ لله مِنْ قولِهِ: «**ينزلُ**».

ثانياً: إثْباتُ الأفْعالِ الاخْتياريةِ التي هِيَ الصِّفاتُ الفعليةُ مِنْ قولهِ: «**ينزلُ حينَ يبقى ثلثُ الليلِ الآخرِ**».

ثالثاً: إثْباتُ القولِ للهِ منْ قولهِ: «**يقولُ**».

رابعاً: إثْباتُ الكرمِ للهِ عزَّ وجلَّ مِنْ قولهِ: «**منْ يدْعوني... منْ يسألني... منْ يستغفرني..**».

وفيهِ مِنَ النَّاحيةِ المسْلكيةِ:

أنَّهُ ينبغي للإنْسانِ أنْ يغتنمَ هذَا الجزءَ مِنَ الليلِ، فيسألُ الله عزَّ وجلَّ ويدْعوهُ ويسْتغْفرهُ، ما دامَ الرَّبُّ سبحانهُ يقولُ: «**منْ يدعوني.. من يستغفرني...**» و(**منْ**): للتشويقِ؛ فينبغي لنَا أنْ نستغلَّ هذهِ الفرصةَ؛ لأنَّهُ ليسَ لكَ مِنَ العمرِ إلَّا ما أمْضيتهُ في طاعةِ الله، وستمرُّ بكَ الأيَّامُ؛

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٧).

سحب رابع

فإذا نزلَ بكَ الموتُ؛ فكأنَّكَ ولدتَ تلكَ الساعة، وكلُّ ما مضى ليسَ بشيءٍ[1].

قال العلامة ابن قدامة المقْدسيُّ رَحِمَهُ اللهُ (٦٢٠هـ): وتيقَّظْ في ساعاتِ الأسْحارِ عنْدَ نزولِ الجبَّارِ، وأحْضِرْ بقلبك قولَ العزيزِ الغفَّارِ: «**هلْ منْ سائلٍ فأعْطيهُ؟ هلْ منْ داعٍ فأسْتجيبَ لهُ؟ هلْ منْ مسْتغفرٍ فأغْفرَ له؟**»[2].

وقالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ عنْ وقتِ النزولِ ـ: «**إنَّهُ وقتُ قسمِ الغنائمِ، وتفريقِ الجوائزِ، فمستقلٌّ ومستكثرٌ ومحرومٌ**»[3].

وقال صدِّيق حسن خان رَحِمَهُ اللهُ: «وقتُ نزول الرَّبِّ إلى السَّماء الدُّنيا أشرفُ أوقاتِ الصَّلواتِ والأذكارِ والدَّعواتِ. فمنْ وفِّقَ فيهِ لذلكَ فقدْ فازَ فوزاً عظيماً، ومنْ حُرِمَهُ فقدْ حُرِمَ خيراً كثيراً»[4].

فالمتقون يقومون في الثلثِ الأخير من الليلِ للصلاةِ والذِّكر والاستغفارِ والدعاء «فما يطلعُ فجرُ الأجرِ إلَّا وقدْ حازَ القومُ الغنيمةَ، وفازوا بالفخرِ، وحمِدوا عند الصَّباحِ السُّرى، وما عندَ أهلِ الغفلةِ والنَّومِ خبرٌ ممَّا جرى»[5].

يا نفسُ قومي فقدْ نامَ الورى ... إنْ تصنعي الخيرَ فذو العرشِ يرى
وأنتِ يا عينُ دعي عنكِ الكرى ... عندَ الصَّباحِ يُحْمَدُ القومُ السُّرى[6].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٤٠٢ ـ ٤٠٣)، للعلّامة: ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) وصية العالم الجليل موفق الدين ابن قدامة المقدسي (ص٥٠).
(٣) تحفة المودود في أحكام المولود (ص٢٤١) [مكتبة دار البيان ـ دمشق، الطبعة الأولى].
(٤) نزل الأبرار (ص١٢٥).
(٥) لطائف المعارف (ص٩٧)، طبعة دار ابن كثير.
(٦) المصدر السابق (ص٩٨).

سحب رابع

أَسْئِلَةٌ وأَجْوِبَتُهَا

السؤالُ الأولُ

اخْتَلَفَ رجلانِ فِي الاعْتِقَادِ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى فِي السّمَاءِ فَهُوَ ضَالٌ. وَقَالَ الآخَرُ: إنَّ الله لَا يَنْحَصِرُ فِي مَكَانٍ فَبَيِّنُوا لَنَا مَا نَتَّبِعُهُ وَمَا الصَّوَابُ فِي ذَلِكَ؟

قالَ شيخُ الاسلام ﷺ: مَنِ اعتقدَ أنَّ الله تعالى فِي جوفِ السَّمَاواتِ محصورٌ محاطٌ بهِ، أو مفتقرٌ إِلَى العرشِ، أَوْ غيرِ العرشِ - مِنَ المخلوقاتِ - أَوْ أَنَّ استواءَهُ عَلَى عرشهِ كاستواءِ المخلوقِ عَلَى كرسيِّهِ؛ فَهُوَ ضالٌّ مبتدعٌ جاهلٌ.

ومَنِ اعتقدَ أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ السَّمَاوَات إلهٌ يعبدُ، وَلَا عَلَى العرشِ ربٌّ يصلَّى لَهُ ويسجدُ، وأنَّ محمَّداً لَمْ يعرجْ بِهِ إِلَى ربِّهِ، وَلَا نزلَ القرآنُ منْ عندهِ، فَهُوَ معطِّلٌ فرعونيٌّ، ضالٌّ مبتدعٌ؛ فإنَّ فرعونَ كذَّبَ موسى في أنَّ ربَّه فوقَ السَّموات، وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، صدَّق موسى عليه السلام، أنَّ ربَّهُ تعالى فوقَ السَّمواتِ، فلمَّا كانَ ليلة المعراجِ، وعرجَ بِهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وفرضَ عليهِ خمسينَ صلاةً؛ ذكرَ أنَّهُ رجعَ إلى موسى وقالَ لهُ: ارجعْ إلى ربِّكَ فاسألهُ التَّخفيفَ لأمَّتك.

سحب رابع

فمنْ وافقَ فرعونَ وخالفَ موسى ومحمَّداً عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهوَ ضالٌّ؛ ومَنْ مثَّلَ اللهَ تعالى وشَبَّهَهُ بخلقهِ، فهو ضَالٌّ.

والقائلُ الذي قالَ: منْ لَمْ يعتقدْ أَنَّ الله فِي السّماءِ فَهُوَ ضالٌّ، إنْ أرادَ بذلكَ منْ لَا يعتقد أنَّ الله فِي جوفِ السَّماء، بحيثُ تحصرُهُ وتحيطُ بِهِ فَقَدْ أخطأَ. وإنْ أرادَ بذلكَ منْ لَمْ يعتقدْ مَا جاءَ بِهِ الكتابُ والسنَّةُ، واتَّفقَ عَلَيهِ سلفُ الأمَّةِ وأئمَّتها، مِنْ أنَّ الله تعالى فَوْقَ سماواته عَلَى عرشهِ، بائنٌ منْ خلقهِ، فَقَدْ أصابَ؛ فإنَّه منْ لَمْ يعتقدْ ذَلِكَ يكونُ مكذِّباً للرسولِ ﷺ، متَّبعاً غيرَ سبيلِ المؤمنينَ؛ بلْ يكونُ فِي الحقيقةِ معطِّلاً لربِّهِ نافياً لَهُ؛ فَلَا يكونُ لَهُ فِي الحقيقةِ إلهٌ يعبدهُ، وَلَا ربٌّ يسألهُ، ويقصدهُ. وهذا قولُ الجهميَّةِ ونحوهمْ منْ أتباعِ فرعونَ المعطِّل.

واللهُ سبحانهُ قدْ فطرَ العبادَ - عربهم و عجمهم - على أنَّهم إذا دعوهُ توجَّهتْ قلوبهم إلى العلوِّ، ولا يقصدونَهُ تحتَ أرجلهمْ، ولهذا قَالَ بعضُ العارفينَ: مَا قَالَ عارفٌ قطُّ: يَا الله!! إِلَّا وجدَ فِي قلبهِ - قبلَ أَنْ يتحرَّكَ لسانهُ - معنًى يطلبُ العلوَّ، لَا يلتفتُ يمنةً وَلَا يسرةً.

وأمَّا القائلُ الذي يقولُ: «إنَّ الله تعالى لا ينحصرُ في مكانٍ» إنْ أرادَ بهِ أنَّ الله تعالى لا ينحصرُ في جوفِ المخلوقاتِ، وأنَّه لا يحتاجُ إلى شيءٍ منها، فقدْ أصابَ، وإنْ أرادَ أنَّ الله ﷻ ليسَ فوقَ السمواتِ، ولا هوَ مستوٍ على العرشِ استواءً لائقاً بذاتهِ، وليسَ هناكَ إلهٌ يعبدُ، ومحمَّدٌ ﷺ لم يعرجْ بهِ إلى اللهِ تعالى؛ فهذا جهميٌّ فرعونيٌّ معطِّلٌ.

ومنشأُ الضَّلالِ أنْ يظنَّ الظانُّ أنَّ صفاتِ الرَّبِّ سبحانهُ كصفاتِ خلقهِ، فيظنُّ أنَّ الله تعالى على عرشهِ، كالملكِ المخلوقِ على سريرهِ؛ فهذا تمثيلٌ وضلالٌ، وذلكَ أنَّ الملِكَ مفتقرٌ إلى سريره، ولو زالَ سريرهُ

لسقطَ، واللهُ عزَّ وجلَّ غنيٌّ عَنِ العرشِ، وعنْ كلِّ شيءٍ، وكلُّ ما سواه محتاجٌ إليه، وهوُ حاملٌ العرشَ وحملةَ العرشِ، وعلوُّه عليهِ لا يوجبُ افتقارَهُ إليهِ، فإنَّ الله تعالى قدْ جعلَ المخلوقاتِ عالياً وسافلاً، وجعلَ العالي غنيّاً عَنِ السَّافلِ، كمَا جعلَ الهواءَ فوقَ الأرضِ، وليسَ هو مفتقراً إليهَا، وجعلَ السَّماءَ فوقَ الهواءِ، وليسَتْ محتاجةً إليهِ. فالعليُّ الأعلى ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهمَا أولى أنْ يكون غنيّاً عَنِ العرشِ، وسائرِ المخلوقاتِ، وإنْ كانَ عالياً عليهَا ﷻ عمَّا يقولُ الظالمونَ علوّاً كبيراً.

والنَّاسُ في هذا البابِ ثلاثةُ أصنافٍ: أهلُ الحلولِ والاتحادِ، وأهلُ النَّفي والجحودِ، وأهلُ الإيمانِ والتَّوحيدِ والسنَّةِ.

فأهلُ الحلولِ يقولونَ: إنَّه بذاتهِ في كلِّ مكانٍ، وقدْ يقولونَ بالاتحادِ والوحدةِ فيقولونَ: وجودُ المخلوقاتِ وجودُ الخالقِ...

وأمَّا أهلُ النَّفي والجحودِ فيقولونَ: لا هوَ داخلُ العالمِ ولا خارجٌ ولا مباينٌ لهُ ولا حالٌّ فيهِ، ولا فوقَ العالمِ ولا فيهِ، ولا ينزلُ منهُ شيءٌ، ولا يصعدُ إليهِ شيءٌ، ونحو ذلكَ. وهذا قولُ متكلِّمةِ الجهميَّةِ المعطِّلةِ، كمَّا أنَّ الأوَّلَ قولُ عبَّادِ الجهميَّةِ؛ فمتكلِّمةُ الجهميَّةِ لا يعبدونَ شيئاً، ومتعبِّدةُ الجهميَّةِ يعبدونَ كلَّ شيءٍ، وكلامهم يرجعُ إلى التَّعطيلِ والجحودِ الذي هو قولُ فرعونَ.

وقدْ علمَ أنَّ الله تعالى كانَ قبلَ أنْ يخلقَ السَّمواتِ والأرضَ ثمَّ خلقهما؛ فإمَّا إنْ يكونَ دخلَ فيهما وهذا حلولٌ باطلٌ، وإمَّا أنْ يكونَا دخلا فيهِ وهوَ أبطلُ وأبطلُ، وإمَّا أنْ يكونَ الله سبحانهُ بائناً عنهما لم يدخلْ فيهما ولمْ يدخلا فيهِ، وهذا قولُ أهلِ الحقِّ والتَّوحيدِ والسنَّةِ.

ولأهلِ الجحودِ والتَّعطيلِ في هذا البابِ شبهاتٍ[^1]، يعارضونَ بها كتابَ الله عزَّ وجلَّ وسنَّةَ رسولهِ ﷺ، وما أجمعَ عليهِ سلفُ الأمَّةِ وأئمَّتهَا، ومَا فطرَ الله تعالى عليهِ عبادهُ، وما دلَّتْ عليهِ الدلائلُ العقليةُ الصحيحةُ؛ فإنَّ هذهِ الأدلَّةَ كلَّها متَّفقةٌ على أنَّ الله تعالى فوقَ مخلوقاتهِ، عالٍ عليهَا، قدْ فطرَ اللهُ تعالى على ذلكَ العجائزَ والأعرابَ والصبيانَ في الكتَّابِ؛ كما فطرهمْ على الإقرارِ بالخالقِ تعالى.

وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ: «**كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هل تُحِسُّونَ فيها منْ جدعاءَ**» ثمَّ قالَ أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠][^2].

وهذا معنى قولِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمه الله: «**عليكَ بدينِ الأعرابِ والصبيانِ في الكتَّابِ، وعليكَ بما فَطَرَهُمُ اللهُ تعالى عليه**»؛ فإنَّ الله سبحانهُ فطرَ عبادهُ على الحقِّ، والرسلُ بعثوا بتكميلِ الفطرةِ وتقريرهَا، لا بتحويلِ الفطرةِ وتغييرهَا.

وأمَّا أعداءُ الرُّسلِ كالجهميَّةِ الفرعونيَّةِ ونحوهم: فيريدونَ أنْ يغيِّروا فطرةَ الله تعالى ودينَهُ عزَّ وجلَّ، ويوردونَ على النَّاسِ شبهاتٍ بكلماتٍ مشتبهاتٍ، لا يفهمُ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ مقصودَهُمْ بها، ولا يحسنُ أنْ يجيبهم. وأصلُ ضلالهم تكلُّمهمْ بكلماتٍ مجملةٍ؛ لا أصلَ لها في

[^1]: (١) قال ابن القيم رحمه الله: «وكيفَ تكونُ الآراءُ والخيالاتُ وسوانحُ الأفكارِ ديناً يُدانُ بهِ ويُحْكَمُ بهِ على اللهِ ورسولهِ؟! سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ!».
[^2]: (٢) رواه البخاري (١٣٥٨ و١٣٥٩ و١٣٨٥ و٤٧٧٥ و٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سحب رابع

كتابِ الله تعالى؛ولا سنَّةِ رسولهِ ﷺ؛ ولا قالها أحدٌ منْ أئمَّةِ المسلمينَ، كلفظِ التحيُّزِ والجسمِ والجهةِ ونحو ذلك.

فمنْ كانَ عارفاً بحلِّ شبهاتهم بيَّنها، ومنْ لمْ يكنْ عارفاً بذلكَ فليعرضْ عنْ كلامهمْ، ولا يقبلُ إلَّا ما جاءَ بهِ الكتابُ والسنَّةُ، كمَا قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]. ومنْ يتكلَّمُ في الله تعالى وأسمائهِ وصفاتهِ بما يخالفُ الكتابَ والسنةَ فهوَ مِنَ الخائضينَ في آياتِ الله تعالى بالباطلِ.

وكثيرٌ منْ هؤلاءِ ينسبُ إلى أئمَّةِ المسلمينَ ما لمْ يقولوه؛ فينسبونَ إلى الشافعيِّ، وأحمدَ بن حنبلٍ ومالكٍ، وأبي حنيفة؛ مِنَ الاعتقاداتِ ما لم يقولوا، ويقولونَ لمنِ اتبعهم: هذَا اعتقادُ الإمامِ الفلانيِّ؛ فإذا طولبوا بالنَّقلِ الصَّحيح عَنِ الأئمَّة تبيَّنَ كذبهم.

وقالَ الشَّافعيُّ: **حُكْمِي في أهلِ الكلامِ: أن يُضربوا بالجَرِيدِ والنِّعالِ، ويُطافُ بهم في القَبَائِلِ والعَشَائِرِ، ويقالُ: هذا جزاءُ مَنْ تَركَ الكتابَ والسُّنَّةَ، وأقبلَ على الكَلَامِ.**

قالَ أبو يوسفَ القاضي: **مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بالكلام تَزَنْدَقَ.**

قالَ أحمد: **ما ارْتَدَى أحدٌ بالكَلَامِ فَأَفْلَحَ.**

قال بعضُ العلماءِ: المُعَطِّلُ يعبدُ عدماً، والمُمَثِّلُ يعبدُ صنماً. المعطِّل أعمى، والممثِّل أعشى(١)؛ ودينُ الله بين الغالي فيهِ والجافي عنهُ.

وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والسنَّةُ

(١) الأعشى: مرادف للأعمى، أو هو سيئ البصر بالليل والنهار.

في الإسلامِ كالإسلامِ في المللِ. والحمدُ لله ربِّ العالمين(١).

السؤالُ الثاني

إذا كانَ اللهُ تعالى إنَّما استوى على العرشِ بعدَ أنْ خلقَ السماواتِ والأرضَ في ستةِ أيَّامٍ، فقبلَ ذلكَ لمْ يكنْ على العرشِ؟

قالَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ: الاسْتِوَاءُ علوٌّ خاصٌّ، فكلُّ مستوٍ عَلَى شيءٍ عالٍ عَلَيهِ، وليسَ كلُّ عالٍ عَلَى شيءٍ مستوٍ عَلَيهِ.

ولهذا لَا يقالُ لكلِّ مَا كانَ عالياً على غيرهِ أنَّهُ مستوٍ عليهِ، واستوى عليهِ؛ ولكن كلُّ ما قيلَ فيهِ أنَّه استوى على غيرِه، فإنَّهُ عالٍ عَلَيهِ.

والذي أخبرَ اللهُ أنَّهُ كانَ بعدَ خلق السَّماواتِ والأرضِ «**الاستواءُ**» لا مطلقُ العلوِّ، مَعَ أنَّهُ يجوزُ أنَّهُ كانَ مستوياً عليهِ قبلَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ لمَّا كانَ عرشهُ على الماءِ، ثمَّ لمَّا خلقَ هذا العالمَ كانَ عالياً عليهِ ولمْ يكنْ مستوياً عليهِ، فلمَّا خلقَ هذا العالمَ استوى عليهِ.

فالأصلُ أنَّ علوَّهُ على المخلوقاتِ وصفٌ لازمٌ لهُ، كمَا أنَّ عظمتَهُ وكبرياءهُ وقدرتهُ كذلكَ، وأمَّا «**الاستواءُ**» فهو فعلٌ يفعلهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمشيئتهِ وقدرتهِ، ولهذا قالَ فيهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ [يونس: ٣].

ولهذا كانَ الاستواءُ مِنَ الصفاتِ السَّمعيةِ المعلومةِ بالخبرِ، وأمَّا علوُّه على المخلوقاتِ فهوَ عندَ أئمَّةِ أهلِ الإثباتِ من الصِّفاتِ العقليةِ المعلومةِ بالعقلِ مَعَ السمعِ(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٢٥٨ ـ ٢٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٣).

سحب رابع

السؤالُ الثالث

ما هو التعليقُ على قولِ الدسوقي: «أصولُ الكفرِ ستةٌ ـ وعدَّ خمسةً منها ثمَّ قال: سادساً: التمسكُ في أصولِ العقائدِ بمجرَّدِ ظواهِرِ الكتابِ والسنَّةِ من غير عَرْضِها على البراهينِ العقليَّةِ والقواطعِ الشرعيةِ... إلى أن قال: والتمسُّكُ في أصولِ العقائدِ بمجرَّد ظواهرِ الكتابِ والسنةِ من غير بصيرةٍ في العقلِ وهو أصلُ ضلَالةِ الحَشَوِيَّةِ، فقالوا بالتَّشبيه والتَّجسيم والجهةِ عملاً بظاهرِ قولهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]»[1].

ويا للهِ العجبُ! كيفَ كانَ الصَّحابةُ والتَّابعونَ قبلَ وضعِ هذهِ القوانينِ التي أتى اللهُ بنيانها مِنَ القواعدِ وقبلَ استخراج هذه الآراءِ والمقاييسِ والأوضاعِ هل كانوا مهتدينَ مكتفينَ بالنُّصوصِ أمْ كانوا على خلافِ ذلكَ؟ حتَّى جاء المتأخرونُ فكانوا أعلمَ منهم وأهدى وأضبطَ للشَّريعة منهم وأعلمَ باللهِ وأسمائهِ وصفاتهِ وما يجبُ لهُ وما يمتنعُ عليهِ منهم؟ فواللهِ لأنْ يلقى الله عبدهُ بكلِّ ذنبٍ ما خلا الإشراك لخيرٌ منْ أنْ يلقاهُ بهذا الظنِّ الفاسدِ والاعتقادِ الباطلِ[2].

والقولُ بأنَّ الأخذَ بظاهرِ الكتابِ والسنَّةِ منْ أصولِ الكفرِ لا يصدرُ البتةَ عنْ عالم بكتابِ الله وسنَّةِ رسوله وإنَّما يصدرُ عمَّن لا علمَ لهُ بالكتابِ والسنَّةِ أصلاً، لأنَّه لجهلهِ بهما يعتقدُ ظاهرهما كفراً والواقعُ في نفسِ الأمرِ أنَّ ظاهرهما بعيدٌ ممَّا ظنَّه أشدَّ منْ بعدِ الشمسِ مِنَ اللمسِ[3].

---

(١) حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص٢١٩)، للسنوسي.

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٤٥٧).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٣٨).

وهذا يتبيَّن منْ وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: ينبغي أنْ يعلمَ بأنَّ كلَّ ما أخبرَ الله بهِ فهوَ حقٌّ، ويستحيلُ أنْ يلزمَ عليهِ باطلٌ.

ولا يخفى على أحدٍ أنَّ الذي يقول: إنَّ الأخذَ بظاهرِ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] يلزمُ منهُ الكفرُ والتشبيهُ والضَّلالُ. أنَّ إلزامهُ هذا اعتراضٌ صريحٌ على منْ أخبرَ بالاستواءِ وهو الله جلَّ وعلا[١].

الوجهُ الثاني: لا شكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ، عالمٌ كلَّ العِلْم، بأنَّ الظاهرَ المتبادرَ ممَّا مدحَ الله بهِ نفسه، في آياتِ الصِّفاتِ هو التنزيهُ التَّامُّ عنْ صفاتِ الخلقِ، ولو كان يخطرُ في ذهنهِ أنَّ ظاهرهُ لا يليقُ، لأنَّهُ تشبيهٌ بصفاتِ الخلقِ، لظهرَ التحذيرُ منهُ ومنْ أصحابهِ وتواترَ أعظمَ ممَّا حذَّروا مِنَ الدَّجالِ الأعورِ الكذَّابِ، ولبادرَ كلَّ المبادرةِ إلى بيانِ ذلكَ، لأنَّه لا يجوزُ في حقِّهِ تأخيرُ البيانِ عنْ وقتِ الحاجةِ إليهِ، ولا سيَّما في العقائدِ، ولا سيَّما فيما ظاهرهُ الكفرُ والتشبيهُ. ولو أخَّرَ البيانَ لكانَ قدْ كلَّفَ العبادَ ما لا سبيلَ إليهِ[٢].

ألا ترى أنَّ المتكلِّمينَ لمَّا اعتقدوا قبحَ هذه الظواهرِ تواترَ عنهمُ التَّحذيرُ عنهَا والتأويلُ لها وصنَّفوا في ذلكَ وأيقظوا الغافلينَ، وعلَّموا الجاهلينَ، وكفَّروا المخالفينَ، وأشاعوا ذلكَ بينَ المسلمينَ؛ بل بينَ العالمينَ. فكانَ أحقَّ منهم بذلك سيِّدُ المرسلينَ، وقدماءُ

---

(١) انظر: منع جواز المجاز (ص٦١).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٤٤٩).

سحب رابع

السابقينَ، وأنصارُ الدِّينِ[1].

الوجهُ الثالثُ: لوْ علمَ الأئمَّةُ أنَّ حملَ النُّصوصِ على ظاهرِهَا كفرٌ لوجبَ عليهم تبيينُ ذلكَ، وتحذيرُ الأمَّةِ منهُ؛ فإنَّ ذلكَ من تمامِ نصيحةِ المسلمينَ، **فكيفَ كانوا ينصحونَ الأمَّةَ فيما يتعلَّقُ بالأحكام العمليةِ ويَدَعونَ نصيحتهم فيما يتعلَّقُ بأصولِ الإعتقاداتِ!! هذا من أبطلِ الباطلِ**[2].

الوجهُ الرابعُ: إنَّ القولَ المذكورَ يتضمنُ الظنَّ السَّيِّءَ بالله تباركَ وتعالى.

ومنْ ظنَّ بالله ﷻ أنَّه أَخبرَ عنْ نفسهِ وصفاتهِ وأفْعالهِ بما ظاهرهُ باطلٌ، وتشْبيهٌ، وتمْثيلٌ، وتركَ الحقَّ، لمْ يخبرْ بهِ، وإنَّما رمزَ إليهِ رموزاً بعيدةً، وأشارَ إليه إشاراتٍ مُلْغِزةً لمْ يصرِّحْ بهِ، وصرَّح دائماً بالتَّشبيهِ والتمثيلِ والباطلِ، وأرادَ منْ خلقهِ أنْ يُتْعِبوا أذْهانهم وقواهم وأفْكارهمْ في تحريفِ كلامهِ عنْ مواضعهِ، وتأويلهِ على غيرِ تأويلهِ، ويتطلَّبوا لهُ وجوهَ الاحتمالاتِ المستكرهةِ، والتأويلاتِ التي هي بالألغازِ والأحاجي أشْبهُ منها بالكشفِ والبيانِ[3]، وأحالهمْ في معْرفةِ أسْمائهِ وصفاتهِ على عقولهمْ وآرائهمْ، لا على كتابهِ، بلْ أرادَ منهمْ أنْ لا يحْملوا كلامهُ على ما يعْرِفونَ منْ خطابهمْ ولغتهم، معَ قدْرتهِ على أنْ يصرِّحَ لهمْ بالحقِّ الذي ينبغي التَّصْريحُ بهِ، ويريحهمْ مِنَ الألفاظِ التي

---

(١) إيثار الحق على الخلق (ص١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٣١)، لابن رجب الحنبلي.

(٣) قال ابن القيم ﵀ في «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٠٧): «قال بعضُ أهل العلم: كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة والمجازات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أولى منها بالبيان والهداية؟ وهل يأمن على نفسه أنْ يكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]».

سحب رابع

توقعهمْ في اعْتقادِ الباطلِ، فلمْ يفعلْ، بلْ سلكَ بهمْ خلافَ طريقِ الهدى والبيانِ، فقدْ ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، فإنَّه إنْ قالَ: إنَّهُ غيرُ قادرٍ على التعْبيرِ عَنِ الحقِّ باللفظِ الصَّريحِ الذي عبَّر بهِ هوَ وسلفُهُ، فقدْ ظنَّ بقدْرتهِ العجزَ، وإنْ قالَ: إنَّهُ قادرٌ ولمْ يبيِّنْ، وعدَلَ عنِ البيانِ، وعَنِ التَّصْريحِ بالحقِّ إلى ما يوْهمُ، بلْ يُوقِعُ في الباطلِ المحالِ، والاعْتقادِ الفاسدِ، فقدْ ظنَّ بحكمتهِ ورحمتهِ ظنَّ السَّوء، وظنَّ أنَّهُ هوَ وسلفهُ عبَّروا عَنِ الحقِّ بصريحهِ دونَ اللهِ ورسولهِ، وأنَّ الهدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم. وأمَّا كلامُ الله، فإنَّما يؤخذُ منْ ظاهرهِ التَّشبيهُ، والتَّمثيلُ، والضَّلالُ، وظاهرُ كلامِ المتهوِّكين[١] الحيارى، هوَ الهدى والحقُّ، وهذا منْ أسوإِ الظنِّ باللهِ، فكلُّ هؤلاءِ مِنَ الظَّانينَ باللهِ ظنَّ السَّوء، ومِنَ الظَّانينَ بهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ[٢].

الوجهُ الخامسُ: أنَّ الذينَ يقولونَ: إنَّ الأخذَ بظاهرِ الكتابِ والسنَّةِ منْ أصولِ الكفرِ لا يعلمونَ ما هيَ الظواهرُ وأنَّهم يعتقدونَ شيئاً ظاهر النص. والواقع أنَّ النَّص لا يدلُّ عليهِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ فضلاً عنْ أنْ يكونَ ظاهره. فبنوا باطلاً على باطلٍ، ولا شكَّ أنَّ الباطلَ لا يُبنى عليه إلَّا الباطل. ولو تصوَّروا معاني ظواهرِ الكتابِ والسنَّةِ على حقيقتها لمنعهم ذلكَ، منْ أن يقولوا ما قالوا.

وأصولُ الكفرِ يجبُ على كلِّ مسلم أن يحذرَ منها كلَّ الحذرِ، ويتباعدَ منها كلَّ التباعدِ ويتجنبُ أسبابها كلَّ الاجتنابِ، فيلزمُ على هذا القولِ المنكرِ الشنيعِ وجوبُ التباعدِ مِنَ الأخذِ بظواهرِ الوحي.

---

(١) التَّهَوُّك: كالتَّهَوُّر، وهو الوقوع في الأمر بغير رَوِيَّة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٣١).

سحب رابع

فتنفيرُ النَّاسِ وإبعادهم عنْ كتابِ الله، وسنَّةِ رسولهِ، بدعوى أنَّ الأخذَ بظواهرِهما منْ أصولِ الكفرِ هو منْ أشنعِ الباطلِ وأعظمِهِ كما ترى.

وهذا كما ترى، وبما ذكرنا يتبيَّنُ أنَّ منْ أعظمِ أسبابِ الضَّلالِ، ادِّعاء أنَّ ظواهرَ الكتابِ والسنَّةِ دالَّةٌ على معانٍ قبيحةٍ، ليستْ بلائقةٍ. والواقعُ في نفسِ الأمرِ بُعدهَا وبراءتها منْ ذلكَ.

فنوصي «أنفسنا وإخواننا المسلمينَ بتقوى الله تعالى وعدمِ التهجُّم على الله تعالى وعلى كتابهِ بالدَّعاوى الباطلةِ والتمسُّكِ بنورِ الوحيِ الصحيحِ في المعتقدِ وغيرهِ، لأنَّ السلامةَ متحققةٌ في اتِّباع الوحي وليستْ متحققةً في شيءٍ غيره:

ونَهْجُ سبيلي واضحٌ لمن اهْتَدَى ولكنَّها الأهواءُ عَمَتْ فَأَعْمَتْ»[1]

وكلامُ الدسوقي «**مع كونهِ ظلماً لنا، يا ليتهُ كان كلاماً صحيحاً مستقيماً، فكنَّا نحلله من حقِّنا ويستفادُ ما فيهِ مِنَ العلمِ!! ولكن فيهِ منْ تحريفِ كتابِ الله والإلحادِ في آياته وأسمائه، والكذبِ والظلمِ، والعدوان الذي يتعلق بحقوقِ اللهِ مما فيه؛ لكنْ إنْ عفونا عنْ حقِّنا، فحقُّ اللهِ إليهِ لا إلى غيرِه**»[2].

السؤالُ الرابعُ

ما معنى قول السَّلفِ: أمِرُّوهَا كما جاءتْ بلا كيفٍ؟

قولهمْ رضي الله عنهم: «**أمرُّوها كما جاءت**» ردٌّ على المعطِّلة، وقولهمْ: «**بلا كيفٍ**» ردٌّ على الممثِّلةِ.

وسأل رجلٌ ربيعةَ بن أبي عبد الرحمن فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

(١) آداب البحث والمناظرة (٢/ ١٦٢)، للعلامة الشنقيطي رحمه الله.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٥).

ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيفَ استوى؟ فقال: «**الاستواءُ غيرُ مجْهولٍ، الكيفُ غيرُ معْقولٍ، ومِنَ اللهِ الرسالة، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا التَّصْديقُ**»[١].

وقال رجلٌ للإمامِ مالكٍ: يا أبا عبدِ الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيفَ استوى؟ قال: «**الكيفُ غيرُ معْقولٍ، والاستواءُ منهُ غيرُ مجْهولٍ، والإيمانُ بهِ واجبٌ، والسُّؤالُ عنهُ بدعةٌ**»[٢].

فقولُ ربيعةَ ومالكٍ: «**الاسْتواءُ غيرُ مجْهولٍ، والكيفُ غيرُ معْقولٍ، والإيمانُ بهِ واجبٌ**» موافقٌ لقولِ الباقينَ: «**أمِرُّوها كما جاءتْ بلا كيفٍ**»؛ فإنَّما نفوا علمَ الكيفيَّةِ، ولمْ ينْفوا حقيقةَ الصِّفةِ.

ولو كانَ القومُ قدْ آمنوا باللَّفظِ المجرَّدِ منْ غيرِ فهمٍ لمعْناه على ما يليقُ باللهِ؛ لما قالوا: «أمرُّوها كما جاءتْ بلا كيفٍ»؛ فإنَّ الاسْتواءَ حينئذٍ لا يكونُ معْلوماً؛ بلْ مجْهولاً بمنْزلةِ حروفِ المعجمِ.

وأيضاً؛ فإنَّه لا يحْتاجُ إلى نفيِ علمِ الكيفيَّةِ إذا لمْ يفهمْ عَنِ اللَّفظِ معنًى؛ وإنَّما يحْتاجُ إلى نفيِ علمِ الكيفيَّةِ إذا أثْبتت الصِّفاتُ.

وأيضاً؛ فإنَّ منْ ينْفي علوَّ اللهِ على العرشِ والنزولَ لا يحْتاجُ أنْ يقولَ: بلا كيفٍ! فمنْ قال: إنَّ اللهَ ليس على العرشِ. لا يحتاجُ أنْ يقولَ: «بلا كيفٍ»، فلو كانَ مذهبُ السَّلفِ التفْويضَ في المعْنى؛ لما قالوا بلا كيفٍ.

وأيضاً؛ فقولهم: «**أمرُّوها كما جاءت**»: يقتضي إبْقاءُ دلالتهَا على ما هي عليهِ، فإنَّها جاءتْ ألْفاظاً دالةً على معاني؛ فلو كانتْ دلالتهَا منْتفيةً؛ لكانَ الواجبُ أنْ يقالَ: «أمرُّوا لفظهَا مع اعْتقادِ أنَّ المفْهومَ منها غيرُ مرادٍ»، أو «أمرُّوا لفْظَهَا مع اعْتقادِ أنَّ اللهَ لا يوصفُ بما دلَّتْ

---

(١) راجع: «مختصر العلو» (ص١٣٢).

(٢) راجع: «مختصر العلو» (ص١٤١).

سحب رابع

عليهِ حقيقةً». وحينئذٍ فلا تكونُ قدْ أُمرَّتْ كما جاءتْ، ولا يقال حينئذٍ: بلا كيفٍ؛ إذْ نفيُ الكيفِ عمَّا ليسَ بثابتٍ لغوٌ مِنَ القولِ[1].

فلا يقالُ إنَّ السَّلفَ ـ رحمهم الله تعالى ـ تلقَّوا النُّصوصَ فلم يفهموها، ففوَّضوا معناها. ولا يجوزُ أن يشتملَ القرآنُ على ما لا يُعلمُ معناه[2] ـ حاشاهم منْ ذلكَ ـ «**بل كفُّوا عَنِ الثرثرةِ، والتشدُّقِ، لا عجزاً بحمدِ الله عَنِ الجدالِ والخصامِ، ولا جهلاً بطرقِ الكلامِ، وإنَّما أمسكوا عَنِ الخوضِ في ذلكَ عنْ علمٍ ودرايةٍ، لا عنْ جهلٍ وعمايةٍ**»[3].

السؤالُ الخامسُ

كيف استوى على العرش؟

مِنَ المعلومِ أنَّ صفاتِ كلِّ موصوفٍ تناسبُ ذاتهُ وتلائمُ حقيقتهُ؛ فمنْ لم يفهمْ منْ صفاتِ الرَّبِّ ـ الذي ليس كمثله شيءٌ ـ إلَّا ما يناسبُ المخلوق فقدْ ضلَّ في عقلهِ ودينهِ.

فقولُ السَّائلِ: كيفَ استوى؟ بمنزلةِ قولهِ: كيفَ ينزلُ؟ وقولهِ: كيفَ يسمعُ؟ وكيفَ يبصرُ؟ وكيفَ يعلمُ ويقدرُ؟ وكيفَ يخلقُ ويرزقُ؟

فنحنُ نعلمُ معنى الاستواءِ ولا نعلمُ كيفيَّتهُ، ونعلمُ معنى السَّمعِ والبصرِ والعلمِ والقدرةِ، ولا نعلمَ كيفيَّةَ ذلكَ. ونعلم معنى الرَّحمةِ والغضب والرضا والفرحِ والضَّحكِ ولا نعلمَ كيفيَّةَ ذلكَ[4].

---

(١) راجع: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩ ـ ٤٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٥).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٠٧).

(٤) انظر: شرح حديث النزول (ص١٣٢ ـ ١٣٣).

سحب رابع

قالَ الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما صحَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالهُ فلا يقالُ فيهِ لِمَ وكيفَ»[١].

وقالَ البربهاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يقولُ في صفاتِ الربِّ: كيفَ؟ ولِمَ؟ إلّا شاكٌّ في الله تبارك وتعالى»[٢].

وقالَ الإمامُ أبو بكرٍ الإسماعيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأنَّهُ عزَّ وجلَّ استوى على العَرْشِ، بلا كَيْفٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى انتهى منْ ذلكَ إلى أنَّه استوى على العرشِ، ولم يَذْكُرْ كيفَ كانَ استواؤُهُ»[٣].

وقالَ عبدُ العزيز بن يحيى المكي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤٠هـ) في «الردِّ على الزنادقة والجهمية»: «فقال الجهميُّ: أخبرني كيفَ استوى على العرشِ؟ أهوَ كمَا يُقالُ: استوى فلانٌ على السريرِ، فيكون السريرُ قد حوى فلاناً وحدَهُ إذا كانَ عليهِ، فيلزمكَ أنْ تقولَ: إنَّ العرشَ قدْ حوى الله وحدَهُ إذا كانَ عليه، لأنَّا لا نعقلُ الشَّيءَ على الشيءِ إلّا هكذا. قالَ: فيُقالُ لهُ: أمَّا قولكَ: كيفَ استوى؟ **فإنَّ الله لا يجري عليهِ كيفَ، وقدْ أخبرنَا أنَّهُ استوى على العرشِ، ولم يخبرنا كيفَ استوى، فوجبَ على المؤمنينَ أنْ يصدِّقوا ربَّهم باستوائهِ على العرشِ، وحرَّمَ عليهم أنْ يصفوا كيفَ استوى، لأنَّهُ لمْ يخبرهمْ كيفَ ذلكَ، ولمْ ترهُ العيونُ في الدنيا فتصفهُ بما رأتْ، وحرَّمَ عليهم أنْ يقولوا عليهِ منْ حيثُ لا يعلمونَ، فآمنوا بخبرهِ عَنِ الاستواءِ، ثمَّ ردُّوا علمَ كيفَ استوى إلى الله**»[٤].

وقال معمر بن أحمد الأصبهانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٤١٨هـ): «جميعُ ما وردَ

---

(١) أخرجه ابن أبي بطة في «الإبانة» (٣/ ٢٠٣) رقم (١٥٧)، بإسناد صحيح.
(٢) شرح السنة (ص٧٠).
(٣) اعتقاد أئمة الحديث (ص٥٠)، لأبي بكر الإسماعيلي.
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١١٧ ـ ١١٨).

سحب رابع

منَ الأحاديثِ في الصِّفاتِ؛ كلُّ ذلكَ بلا كيفٍ ولا تأويلٍ نؤمنُ بها إيمانَ أهلِ السلامةِ والتسليم، ولا نتفكَّرُ في كيفيَّتها، وساحةُ التَّسليم لأهلِ السنَّةِ، والسلامةُ واسعةٌ بحمدِ الله ومنِّهِ، وطلبُ السلامةِ في معرفةِ صفات الله عزَّ وجلَّ أوجبُ وأولى، وأقمنْ وأحرى، فإنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فليسَ كمثلهِ شيءٌ: ينفي كلَّ تشبيهٍ وتمثيلٍ، وهو السميع البصير: ينفي كلَّ تعطيلٍ وتأويلٍ، فهذا مذهبُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ والأثرِ، فمنْ فارقَ مذهبهم فارقَ السنَّةَ، ومنِ اقتدى بهم وافقَ السنَّةَ، ونحنُ بحمدِ الله منَ المقتدينِ بهم، المنتحلينَ لمذاهبهم، القائلينَ بفضلهم، جمعَ اللهُ بيننا وبينهم في الدَّارينِ، فالسنَّةُ طريقتنا، وأهلُ الأثرِ أئمتنا، فأحيانا اللهُ عليها وأماتنا عليها برحمتهِ إنَّهُ قريبٌ مجيبٌ»(١).

وقال الحافظ إسماعيلُ بنُ محمدٍ التيميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٥٣٥هـ): «**الاستواءُ معلومٌ كونهُ مجهولُ كيفيَّتهُ**، واستواءُ نوحٍ على السفينةِ معلومٌ كونهُ معلومٌ كيفيَّتهُ؛ لأنَّهُ صفةٌ لهُ، وصفاتُ المخلوقينَ معلومةٌ كيفيَّتها. واستواءُ الله على العرشِ غيرُ معلوم كيفيَّتهُ؛ لأنَّ المخلوقَ لا يعلمُ كيفيَّةَ صفاتِ الخالقِ؛ لأنَّهُ غيبٌ ولا يعلمُ الغيبَ إلَّا الله، ولأنَّ الخالقَ إذا لمْ يشبه ذاتهُ ذاتَ المخلوقِ لمْ يشبه صفاتهُ صفات المخلوق. فثبتَ أنَّ الاستواءَ معلومٌ، والعلمُ بكيفيَّتهِ معدومٌ، فعلمهُ موكولٌ إلى الله تعالى، كما قال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧]»(٢).

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/٢٥٨ ـ ٢٥٩).

سحب رابع

وقال السفاريني رَحِمَهُ اللهُ:

سُبْحَانَهُ قَدِ «اسْتَوَى» كَمَا وَرَدَ ... مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ قَدْ تَعَالَى أَنْ يُحَدَّ[1].

وقدْ قَالَ بعضهم، مخاطباً للزمخشريِّ، منكراً عَلَيهِ نفيَ الصِّفاتِ، شعراً:

قُلْ لِمَنْ يفهمُ عنِّي مَا أقولُ ... قِصَرَ القَوْلِ فذا شرحٌ يَطُولُ
أَنْتَ لَا تفهمُ إيَّاك وَلَا ... مَن أنْتَ وَلَا كيفَ الوُصولُ
لَا وَلَا تدري خَفَايا رُكِّبَتْ ... فيكَ حارَتْ فِي خَبَايَاهَا العُقُولُ
أَنْتَ أَكْلُ الخُبْزِ لَا تَعْرِفُه ... كيفَ يجري منكَ أم كيفَ تَبُولُ
أينَ منكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا ... كيفَ تَسْرِي فيكَ؟ أم كيف تجولُ؟
فإذا كانَتْ طَوايَاكَ التي ... بين جَنْبَيكَ كذا فِيهَا ضلولُ
كيفَ تَدْرِي مَنْ على العرشِ استوى ... لَا تَقُل كَيْفَ اسْتَوَى كَيْفَ النُّزُولُ[2].

وما أحْسن ما قيل:

عَلىَ عرْشِهِ الرَّحْمَنُ سُبْحَانَهُ اسْتَوىَ ... كَمَا أَخْبَرَ القُرْآنُ وَالمُصْطَفَى رَوَى
وَذَاكَ اسْتِواءٌ لَائِقٌ بِجَلَالِهِ ... وَأَبْرَأُ مِنْ قَوْلِي لَهُ العرْشُ قَدْ حَوَى
فَمَنْ قَالَ مِثْلَ الفُلْكِ كَانَ اسْتِوَاؤُهُ ... عَلَى جَبَلِ الجودِي مِنْ شَاهِقٍ هَوَى
وَمَنْ يَتَّبِعْ مَا قَدْ تَشَابَهَ يَبْتَغِي ... بِهِ فِتْنَةً أَوْ يَبْغِي تَأْوِيلَهُ غَوَى
فَلَمْ أَقُلِ اسْتَوْلَى وَلَسْتُ مُكَلَّفاً ... بِتَأْوِيلِهِ كَلَّا وَلَمْ أَقُلِ احْتَوَى
ومَنْ قَالَ لي كَيْفَ اسْتَوَى لَا أُجِيبُهُ ... بِشَيء سِوَى أَنِّي أَقُولُ لَهُ اسْتَوَى[3].

السؤالُ السادسُ

هل مذهبُ السَّلفِ أسلمُ، ومذهبُ الخلفِ أحكمُ وأعلمُ؟

شاعَ عندَ المتأخرينَ مِنَ المتكلِّمينَ: أنَّ طريقةَ السَّلفِ أسلمُ، وأنَّ

(١) العقيدة السفارينية (ص٥٤)، تحقيق: أشرف عبد المقصود.
(٢) الدرر السنية (٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٣) شرح العقيدة السفارينية (ص١٠١).

سحب رابع

طريقةَ الخلفِ أحكمُ، وهذا ليس بمستقيم؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ طريقةَ السَّلفِ مجرَّدُ الإيمانِ بألفاظِ القرآنِ والحديثِ منْ غير فقهٍ في ذلكَ، وأنَّ طريقةَ الخلفِ هي استخراجُ معاني النُّصوصِ المصروفةِ عنْ حقائقها بأنواعِ المجازاتِ.

فجمعَ هذا القائلُ بينَ الجهلِ بطريقةِ السَّلفِ، والدَّعوى في طريقةِ الخلفِ.

ثمَّ هذا القولُ إذا تدبَّرهُ الإنسانُ وجدَهُ في غايةِ الجهالةِ؛ بلْ في غايةِ الضَّلالة.

أليسَ هذا صريحاً: أنَّ السَّلفَ كانوا ضالِّينَ عَنِ التوحيدِ والتنزيهِ وعَلِمَهُ المتأخرونَ؟! وهذا فاسدٌ بضرورةِ العلمِ الصحيحِ والدينِ المتينِ... فيصفونَ إخوانهم بالفضيلةِ في العلمِ والبيانِ، والتحقيقِ والعرفانِ، والسَّلفَ بالنَّقصِ في ذلكَ والتقصيرِ فيهِ، أو الخطأ والجهلِ.

ولا ريبَ أنَّ هذا وإنْ لمْ يكنْ تكفيراً للسَّلفِ، ولا تفسيقاً لهم، كان تجهيلاً لهم وتخطئةً وتضليلاً، ونسبةً لهم إلى الذنوبِ والمعاصي، وإنْ لم يكنْ فسقاً فزعماً: أنَّ أهلَ القرونِ المفضولة في الشَّريعةِ أعلمُ وأفضلُ منْ أهلِ القرونِ الفاضلةِ.

ومِنَ المعلومِ بالضَّرورةِ لمنْ تدبَّرَ الكتابَ والسنَّةَ، وما اتَّفقَ عليهِ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ منْ جميعِ الطوائفِ: أنَّ خيرَ قرونِ هذهِ الأمَّةِ ـ في الأعمالِ والأقوالِ، والاعتقادِ وغيرهَا منْ كلِّ فضيلةٍ أنَّ خيرَها ـ: القرنُ الأوَّلُ، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم، كما ثبتَ ذلكَ عَنِ النبيِّ ﷺ منْ غيرِ وجهٍ، وأنَّهم أفضلُ مِنَ الخلفِ في كلِّ فضيلةٍ: منْ علم وعملٍ وإيمانٍ وعقلٍ ودينٍ وبيانٍ وعبادةٍ، وأنَّهم أولى بالبيانِ لكلِّ مُشْكِلٍ. هذا

سحب رابع

لا يدفعهُ إلَّا منْ كابرَ المعلومَ بالضَّرورةِ منْ دينِ الاسلامِ، وأضلَّهُ الله على علمٍ.

هذا وقدْ قال ﷺ: «**لا يأتي عليكم زمانٌ إلَّا الذي بعدهُ شرٌّ منهُ، حتَّى تلقوا ربَّكم**»(١). فكيفَ يحدثُ لنا زمانٌ فيهِ الخيرُ في أعظمِ المعلوماتِ وهو معرفةُ الله تعالى؟ هذا لا يكونُ أبداً.

وما أحسن ما قالَ الشافعيُّ رحمه الله في رسالتهِ: «**هم فوقنا في كلِّ علمٍ وعقلٍ ودينٍ وفضلٍ، وكلِّ سببٍ يُنالُ به علمٌ أو يدركُ به هدًى، ورأيهم لنا خيرٌ منْ رأينا لأنفسنا**»(٢).

وقالَ العلَّامةُ الشنقيطيُّ رحمه الله: قولهم: «إنَّ مذهبَ السَّلفِ أسلمُ، ومذهبَ الخلفِ أحكمُ وأعلمُ» فنقول:

أوَّلاً: وصفوا مذهبَ السَّلفِ بأنَّهُ أسلمُ، وهي صيغةُ تفضيلٍ مِنَ السَّلامةِ(٣) ومَا كانَ يفوقُ غيرهُ ويفضلهُ في السَّلامةِ فلا شكَّ أنَّهُ أعلمُ منهُ وأحكمُ.

ثانياً: اعلموا أنَّ المؤولينَ ينطبقُ عليهم بيتُ الشافعيِّ رحمه الله:

رَامَ نَفْعاً فَضَرَّ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ ... ومِنَ البِرِّ ما يَكُونُ عُقُوقاً

وإيضاحُ المقارنةِ: أنَّ منْ كانَ على معتقدِ السَّلفِ الصَّالحِ إذا سَمِعَ مثلاً قولَهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] امتلأَ قلبهُ مِنَ الإجلالِ والتَّعظيمِ والإكبارِ لصفةِ ربِّ العالمينَ التي مَدَحَ بها نفسَهُ وأثنى

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٥٨).

(٣) والسلامةُ لا يعدلها شيءٌ وهي منْ أعظمِ الغاياتِ التي يطلبهَا المسلمُ لدينهِ وعرضهِ ومالهِ، وما سواها هو التعرُّض للهلاكِ والبوارِ.

عليهِ بهَا، فجزمَ بأنَّ تلكَ الصِّفةِ التي تمدَّحَ بهَا خالقُ السمواتِ والأرضِ بالغةٌ مِنْ غاياتِ الكمالِ والجلالِ ما يقطعُ علائقَ أوهامِ المشابهةِ بينهَا وبينَ صفاتِ الخلقِ.

وبإجلالِ تلكَ الصِّفةِ وتعظيمهَا وحملهَا على أشرفِ المعاني اللائقةِ بكمالِ منْ وَصَفَ بهَا نفسَهُ وجلالهُ، يسهلُ على المؤمنِ السَّلفيِّ أنْ يؤمنَ بتلكَ الصِّفةِ، ويثبتها لله كمَا أثبتهَا الله لنفسهِ على أساسِ التنزيهِ.

فيكونُ أوّلاً: منزِّهاً سالماً منْ أقذارِ التَّشبيهِ.

وثانياً: مؤمناً بالصِّفاتِ، مصدِّقاً بها، على أساسِ التَّنزيهِ. فيكونُ سالماً منْ أقذارِ التَّعطيلِ.

فيجمعُ بينَ التَّنزيهِ والإيمانِ بالصِّفاتِ على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فمعتقدهُ طريقُ سلامةٍ محقَّقةٍ؛ لأنَّهُ مبنيٌّ على ما تضمنتهُ آيةُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] الآية، مِنَ التَّنزيهِ، والإيمانِ بالصِّفاتِ.

فهوَ تنزيهٌ منْ غيرِ تعطيلٍ، وإيمانٌ منْ غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ.

وكلُ هذا طريقُ سلامةٍ محقَّقةٍ، وعملٌ بالقرآنِ. فهذا هوَ مذهبُ السَّلفِ.

وأمَّا ما يسمُّونهُ مذهبُ الخلفِ فالحاملُ لهم فيهِ على نفيِ الصِّفاتِ وتأويلها: هو قصدهم تنزيهُ الله عنْ مشابهةِ الخلقِ.

ولكنَّهمْ في محاولتهم لهذا التنزيهِ وقعوا في ثلاثِ بلايا، ليستْ واحدةً منها إلَّا وهي أكبرُ منْ أختها:

سحب رابع

الأولى: منْ هذهِ البلايا الثلاث: أنَّهم إذا سمعوا قولَ الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] زعموا أنَّ ظاهرَ الاستواءِ في الآيةِ هو مشابهةُ استواءِ المخلوقينَ. فتهجَّموا على ما وصفَ اللهُ بهِ نفسَهُ في محكمِ كتابهِ، وادَّعوا عليهِ أنَّ ظاهرَهُ المتبادر منهُ هو التَّشبيهُ بالمخلوقينَ في استوائهم.

فكأنَّهم يقولونَ لله: هذا الاستواءُ الذي أثنيتَ بهِ على نفسكَ في سبع آياتٍ منْ كتابكَ ظاهرهُ قذرٌ نجسٌ لا يليقُ بكَ لأنَّهُ تشبيهٌ بالمخلوقينَ، ولَا شيءَ مِنَ الكلامِ أقذرُ وأنجسُ منْ تشبيهِ الخالقِ بخلقِه! سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ!

وهذهِ هي البَلِيَّةُ الأولى التي هيَ التَّهجُّمُ على نصوصِ الوحيِ وادِّعاءُ أنَّ ظاهرَها تشبيهُ الخالقِ بالمخلوقِ، وناهيكَ بهَا بليَّة.

ثمَّ لمَّا تقرَّرتْ هذه البليَّةُ في أذهانهمْ، وتقذَّرتْ قلوبهمْ بأقذارِ التَّشبيهِ، اضطروا بسببها إلى نفي صفةِ الاستواءِ فراراً منْ مشابهةِ الخلقِ التي افتروها على نصوصِ القرآن أنَّها هي ظاهرها.

ونفيُ الصِّفةِ التي أثنى الله بها على نفسِهِ منْ غيرِ استنادٍ إلى كتابٍ أو سنةٍ هو **البليَّةُ الثانيةُ** التي وقعوا فيها.

فحملوا نصوصَ القرآنِ أوَّلاً على معانٍ غيرُ لائقةٍ بالله، ثمَّ نفوهَا منْ أصلهَا، فراراً مِنَ المحذورِ الذي زعموا.

والبليَّةُ الثالثةُ: أنَّهمْ يفسِّرونَ الصِّفةَ التي نفوهَا بصفةٍ أخرى، منْ تلقاءِ أنفسهم، منْ غيرِ استنادٍ إلى وحيٍ؛ معْ أنَّ الصِّفةَ التي فسَّرها بها هي بالغةٌ غايةَ التَّشبيهِ بالمخلوقينَ. فيقولون ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [طه: ٥] ظاهرهُ مشابهةُ استواءِ المخلوقينَ. فمعنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [طه: ٥]: استولى،

سحب رابع

ويستدلون بقولِ الراجزِ في إطلاقِ الاستواءِ على الاستيلاءِ:

قد استوى بِشْرٌ عَلَى العِراقِ   مِن غيرِ سَيفٍ وَدَمٍ مهراقِ

ولا يدرونَ أنَّهم شبَّهوا استيلاءَ الله على عرشهِ الذي زعموهُ باستيلاءِ «بِشْرِ بنِ مروانَ» على العراقِ!!

فأيُّ تشبيهٍ بصفاتِ المخلوقينَ أكبرُ منْ هذا؟! وهلْ يجوزُ لمسلمٍ أنْ يشبِّهَ صفةَ الله التي هي الاستيلاءُ المزعومُ بصفةِ بشرٍ التي هيَ استيلاؤهُ على العراقِ؟

وصفةُ الاستيلاءِ منْ أوغلِ الصِّفاتِ في التَّشبيهِ بصفاتِ المخلوقينَ، لأنَّ فيها التَّشبيهَ باستيلاءِ مالكِ الحمارِ على حمارهِ، ومالكِ الشَّاةِ على شاتهِ ويدخلُ فيها كلُّ مخلوقٍ قهرَ مخلوقاً واستولى عليه.

وفي هذا منْ أنواعِ التَّشبيه ما لا يحصيهِ إلَّا الله.

فإنْ زعمَ مَنْ شَبَّهَ أولاً، وعطَّلَ ثانياً، وشبَّه ثالثاً أيضاً، أنَّ الاستيلاءَ المزعومَ منزَّهٌ عنْ مشابهةِ استيلاءِ المخلوقينَ.

قلنا لهُ: نحنُ نسألك ونطلبُ منكَ الجوابَ بإنصافٍ: أيُّهمَا أحقُّ بالتَّنزيهِ عنْ مشابهةِ الخلقِ! الاستواءُ الذي مَدَحَ الله بهِ نفسَهُ في محكمِ كتابهِ وهو في نفسِ القرآنِ الذي يتلى، ولتاليهِ بكلِّ حرفٍ منهُ عشرُ حسنَاتٍ، لأنَّهُ كلامُ الله، أم الأحقُّ بالتَّنزيهِ هو الاستيلاءُ الذي جئتمْ بهِ منْ تلقاءِ أنفسكمْ منْ غيرِ استنادٍ إلى وحيٍ؟.

ولا شَكَّ أنَّ الجوابَ الحقَّ: أنَّ اللَّفظَ الواردَ في القرآنِ أحقُّ بالتَّنزيهِ والحملِ على أشرفِ المعاني وأكملها، منَ اللَّفظِ الذي جاءَ بهِ معطِّلٌ مِنْ كِيسِهِ الخاص، لا مستندَ لهُ مِنَ الوحيِ!

سحب رابع

وبهذهِ الكلماتِ القليلةِ يظهرُ لكمُ: «**أنَّ مذهبَ السَّلفِ أسلمُ وأحكمُ وأعلمُ**»[1] **وأهدى إلى الطريق الأقوم. ومذهبُ الخلفِ ـ الذي هو التأويلُ ـ بدعةٌ أحدثها المنتحلونَ وتمسَّكَ بها المبطلونَ**[2].

السؤالُ السابعُ

هل التحدُّث بآياتِ الصفاتِ وأحاديثها فيه تلبيسٌ على العامَّةِ وفتنةٌ لهم، وفيه تمزيقُ وحدة الأمَّةِ؟

اعلمْ ـ بارك الله فيك ـ بأنَّ المشتغلينَ بعلم الكلامِ ينكرونَ على السلفيينَ التحدُّثَ بأحاديثِ الصِّفاتِ، زاعمينَ أنَّهُ فتنةٌ على العامَّةِ، وفيه مِنَ الإضلالِ وتمزيقِ وحدة الأمَّةِ.

وهذا الكلامُ باطلٌ منْ وجهينِ:

الأولُ: أنَّ النبي ﷺ كان يتلو آياتِ الصِّفاتِ ويتكلَّمُ بكلامهِ الذي فيهِ خبرٌ عَنِ الله تعالى وصفاتهِ، وكانَ يغشاهُ عليه الحضريُّ والبدويُّ، فلو كانَ بيانُ توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ تلبيساً على العامَّةِ لم يتفوَّه النبيُّ ﷺ بشيءٍ منْ ذلكَ.

و«منْ زعمَ: أنَّ إطلاقَ ما أطلقهُ رسولُ الله ﷺ على الله عزَّ وجلَّ، في مجالسهِ الشريفةِ، ومجامعهِ المنيفةِ ممنوعٌ لنا، ومنهيٌّ عنه؛ فقدْ أتى باباً كبيراً، منْ أبوابِ إساءةِ الأدبِ بالله وبرسوله. ولم يَكُنِ الله ولا رسولُهُ، قطُّ: عاجزينَ عنْ أنْ لا يأتيا بهذه الألفاظِ الموهمةِ: للتَّجسيم والتَّشبيه. بلْ قالا مَا يكونُ صريحاً في التَّنزيهِ والتَّقديسِ.

---

(١) القواعد الطيبات في الأسماء والصفات (ص٨٨ ـ ٩٢).

(٢) عون الباري (٤/٧١٨)، لصديق حسن خان رحمه الله.

سحب رابع

فهذا الزعمُ ـ منْ أهلِ التَّأويلِ، والكلامِ ـ: منْ أبطلِ الباطلاتِ، وأنكرِ المنكراتِ.

ونحنُ إذا تلونَا قولَه سبحانهُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] تلاشَتْ شُبَهُ التمثيلِ والتكييفِ، بحذافيرِهَا. ولم يبقَ لشيءٍ مِنَ التجسيمِ والتشبيهِ مَسَاغٌ.

فنحنُ نسبِّحهُ ونقدِّسهُ عنْ جميعِ سماتِ النَّقصِ، والزوالِ. ونثبتُ لهُ ما أثبتهُ لنفسهِ المقدَّسة، ووصفهُ بهِ رسولهُ ـ فيمَا صحَّ عنهُ، روايةً ـ وهذا هوَ مختارُ جمهورِ السَّلف، ومشربُ الصالحينَ مِنَ الخلفِ. ومنْ خالفَ ذلكَ: فقدْ خالفَ هذه الشريعةَ، بلِ الشرائعَ كلَّها»[1].

الثاني: القولُ بأنَّ بيانَ صفاتِ الله تعالى بدونِ تعطيلها وبدونِ تحريفِ نصوصها فيهِ إضلالٌ وتمزيقٌ لوحدةِ الأمَّةِ، قولٌ في غايةِ السفاهةِ والفسادِ، فإنَّ المتكلِّمينَ مِنَ الجهميَّةِ المعطِّلةِ هم الذين مزَّقُوا وحدةَ هذهِ الأمَّةِ، وأتوا بضلالِ التَّعطيلِ وإضلالِ التَّحريفِ.

وأمَّا السَّلفيُّون فهم بحمدِ اللهِ يدعونَ النَّاس إلى ما كان عليه سلفُ هذهِ الأمَّةِ ولا يجمعُ شملُ هذهِ الأمَّة إلَّا بتوحيدِ العقيدةِ وتوحيدِ الصُّفوفِ. وهذا لا يمكنُ إلَّا بالتمسُّكِ بالكتابِ والسنَّةِ وما عليهِ أئمَّةُ هذهِ الأمَّةُ في العقائدِ والأعمالِ[2].

ونحنُ نقولُ: لا مخافةَ على العَامَّةِ منْ فهمِ الاستواءِ فهماً فاسداً.

---

(١) السراج الوهاج (١١/ ١٢٧) لصديق حسن خان رحمه الله.

(٢) التنبيهات السنية (ص١٩١ ـ ١٩٢) بتصرف يسير.

سحب رابع

فإنَّ كتابَ الله وسنَّة نبيِّه ﷺ قدْ تلقتهما الأمَّةُ بالقبولِ والتَّسليم ولم يُتَطَرَّقْ إلى أذهانِ أحدٍ منهم هذا المفهومُ الخاطئُ، وإنَّما يُخَافُ على العَّامةِ منْ تأويلاتِ أهلِ الكلامِ ودعاويهم الباطلةِ. الذين يرددون في مجالسهم: «كانَ اللهُ ولا مكانَ وهو الانَ على ما عليهِ كان» و«إنَّ الله خلقَ العرشَ إظْهاراً لقدْرتهِ ولمْ يتخذه مكاناً لذاتهِ» **وأمثال هذا الهذيان الذي هوَ منْ وحيِّ الشَّيطانِ.**

السؤالُ الثامنُ

هل آياتُ الصِّفاتِ مِنَ المتشابَه؟

اعلمْ رحمكَ الله بأنَّ أهلَ الكلامِ جعلوا آياتِ الصفاتِ مِنَ المتشابَهِ التي لا يعلمُ معناها إلَّا الله ﷻ.

وهذا افتراءٌ قبيحٌ، وبهتٌ صريحٌ، وكذبٌ شنيعٌ، وتقوُّلٌ فظيعٌ، وضلالٌ وإضْلالٌ. وهذا يتبيَّنُ منْ وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ الله ﷻ قالَ في كتابهِ العزيزِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾** [النساء: ٨٢].

فالله ﷻ «قدْ أمرَ بتدبُّر القرآنِ مطلقاً، ولم يستثن منهُ شيئاً لا يتدبَّر، ولا قالَ: لا تدبَّروا المتشابه، والتدبُّر بدونِ الفهم ممتنعٌ، ولو كانَ مِنَ القرآنِ ما لا يُتَدبَّر لم يعرفْ، فإنَّ الله لم يميِّز المتشابه بحدٍ

سحب رابع

ظاهرٍ حتَّى يجتنبَ تدبُّرُه»[1].

الثاني: أنَّ الله ﷻ وصفَ القرآنَ بأنَّه: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ووصفهُ بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فلمَّا أخبرَ ﷻ بأنَّ القرآنَ شفاءٌ، وهدىً، ورحمةٌ، ونورٌ، ومبينٌ، ولم يستثنِ منهُ شيئاً دلَّ على أنَّهُ كلَّهُ كذلكَ، وأنَّهُ ممَّا يمكنُ فهمُ معناه، ولو لمْ يمكنْ فهمُ معناه لمْ تتحقَّقْ فيهِ هذهِ الصفاتُ[2].

الثالثُ: أنَّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣].

فبيَّن سبحانهُ أنَّهُ أنزلهُ عربيّاً ليعقلَ، والعقلُ لا يكونُ إلَّا معَ العلمِ بمعانيه[3].

الرابعُ: أنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨].

فالله تعالى قدْ ذَمَّ هؤلاءِ الذينَ لا يعرفونَ الكتابَ إلَّا تلاوةً دونَ فهمِ معانيهِ، كما ذمَّ الذين يحرِّفون الكلمَ عنْ مواضعهِ منْ بعد ما عقلوهُ وهم يعلمونَ، فإنَّه ﷻ قالَ عقبَ الآيةِ السابقةِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٦).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٨).

سحب رابع

لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

فهذا يدلُّ على أنَّ كلا النوعينِ مذمومٌ: الجاهلُ الذي لا يفهمُ معاني النُّصوصِ، والكاذبُ الذي يحرِّفُ الكلمَ عنْ مواضعهِ(١).

والمقصودُ أنَّ الله ﷻ ذمَّ منْ لا يعرفُ منْ كتابهِ إلَّا مجرَّد التلاوةِ دونَ فقهٍ ولا فهمٍ لمعانيهِ، وأنَّ ذلكَ منْ خصالِ اليهودِ.

ولذلكَ فإنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فلو «كان المؤمنون لا يفقهونهُ أيضاً لكانوا مشاركينَ للكفَّارِ والمنافقينَ فيما ذمَّهمُ الله تعالى بهِ»(٢).

الخامسُ: أنَّهُ تعالى ذمَّ منْ لمْ يكنْ حظُّهُ مِنَ السَّماعِ إلَّا سماع الصَّوتِ دونَ فهمِ المعنى واتِّباعهِ، فقالَ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، وقالَ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

فمنْ جعلَ السَّابقينَ الأوَّلينَ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ والتَّابعينَ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٣٢ ـ ٤٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٨).

سحب رابع

لهم بإحسانٍ غير عالمين بمعاني القرآن جعلهم بمنزلةِ الكفَّارِ والمنافقينَ فيما ذمَّهم الله تعالى عليه[1].

السادسُ: أنَّ الله تعالى قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

ولوْ لمْ يكنِ القرآنُ مفهوماً ومعلوماً لمْ يكنْ كافياً ولمْ يكنْ برهاناً.

قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومِنَ المحالِ أن يكونَ الكتابُ الذي يخالفهُ صريحُ العقلِ كافياً، وإنما يكون كافياً لمنْ قدَّمهُ على كلِّ معقولٍ ورأيٍّ وقياسٍ وذوقٍ، وحقيقةٍ وسياسةٍ، فهذا الكتابُ في حقِّهِ كافٍ لهُ، كما أنَّهُ إنَّما يكونُ رحمةً وذكرى لهُ دونَ غيرهِ، وأمَّا منْ أعرضَ عنهُ أو عارضهُ بآراءِ الرجالِ فليس بكافٍ لهُ ولا هو في حقِّهِ هدًى ولا رحمةً، بلْ هوَ مِنَ الذين آمنوا بالباطلِ وكفروا بالله[2].

السابعُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فإنَّهُ يدلُّ على أنَّهُ يبيِّنُ للنَّاسِ جميعَ ما نُزِّلَ إليهم فيكونُ جميعُ المنزل مبيناً عنه يمكنُ معرفتهُ وفهمهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] يدلُّ على ذلكَ، فإنَّ التفكُّرَ طريقٌ إلى العلمِ وما لا يمكنُ العلمُ بهِ لا يؤمرَ بالتفكُّرِ فيهِ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) الصواعق (ص١٣٥٢ ـ ١٣٥٣)

سحب رابع

الثامنُ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣]، وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

ومعلومٌ أنَّ اتباعَ ما أمرهم الله تعالى مِنَ الكتاب والحكمة إنَّما يمكنُ بعدَ فهمِهِ وتصوُّرِ معناه، ومَا كانَ مِنَ الكلامِ لا يمكنُ أحداً فهمهُ لَمْ يمكن اتباعهُ، بلْ كانَ الذي يسمعهُ كالذي لا يسمعُ إلَّا دعاءً ونداءً، وإنَّما الاتباعُ لمعاني الكلامِ.

التاسعُ: قولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومعلومٌ أنَّ حكمَ الله بالكتابِ أو حكمَ الكتابِ بين المختلفين لا يمكنُ إلَّا إذا عرفوا ما حكمَ بهِ مِنَ الكتابِ، وما تضمَّنهُ الكتابُ مِنَ الحكمِ، وذلكَ إنَّما يمكنُ إذا كانَ ممَّا يمكنُ فهمُ معناهُ وتصوُّرُ المرادُ بهِ دونَ ما يمتنعُ ذلكَ منهُ.

العاشرُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال المفسِّرونَ: لو جعلهُ قرآناً أعجمياً لأنكروا ذلكَ، وقالوا: هلَّا بَيَّنْتَ آياتهِ بلغةِ العربِ لنفهمهُ، أقرآنٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ؟!(١).

فقدْ بيَّن سبحانه وتعالى أنَّه لو جعلهُ أعجمياً لأنكروهُ، فجعلهُ عربياً ليفهمَ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٤) [طبعة دار الفكر ـ بيروت].

سحب رابع

معناهُ، وليندفعَ مثلُ هذا القولِ، ومعلومٌ أنَّه لو كان أعجمياً لأمكنهم التَّوصلُ إلى فهمهِ بأنْ يترجمَ لهم مترجمٌ، إمَّا أنْ يسمعَهُ مِنَ الرسولِ ويترجمهُ، أو يحفظهُ لهم أعجمياً ثمَّ يترجمهُ لهم، كما أنَّ مِنَ العجم منْ يحفظُ القرآنَ عربياً ولا يفهمُ، ويُتَرْجَمُ لهُ، وأمَّا إذا كان عربياً لا يمكنُ أحداً أنْ يفهمهُ لا الرسولُ ولا المرسلُ إليهم فإنكارُ هذا أعظمُ منْ إنكارِ كونهِ أعجمياً، وإذا كان الله تعالى قدْ بيَّن أنَّه لا يفعلُ الأوَّلَ فهوَ ألَّا يفعل هذا أولى وأحرى.

الحادي عَشَرَ: أنَّ الله تعالى وصفَ آياتِ القرآنِ بقولهِ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقولُهُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١].

وما لا يمكن فهمهُ فإنَّهُ لم يُحْكَمْ، ولم يُفَصَّلْ، ولم يبيَّنْ.

الثاني عَشَرَ: أنَّ الله مدحَ القرآنَ وبيَّنَ اشتماله على علمهِ، كمَا قالَ ﷻ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٦٦].

وإذا كانَ كذلكَ دلَّ على أنَّ ما فيهِ منَ العلمِ لمْ يستأثرِ الله تعالى بهِ بلْ أنزلهُ إلى عبادهِ وعلَّمهم إيَّاه، وهوَ منْ علمهِ الذي قالَ فيهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذا لا يكونُ إلَّا إذا أمكنَ فهمُ معناه، وإلَّا فاللَّفظُ الذي لا يمكنُ فهمُ معناه لا علمَ فيهِ لأحدٍ، ومثلُ هذا قولُهُ تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

الثَّالِثُ عَشَرَ: وأيضاً فالكلامُ إنَّما المقصودُ بهِ الإفهامُ، فإذا لمْ يُقصدْ بهِ ذلكَ كان عبثاً وباطلاً، والله تعالى قدْ نزَّهَ نفسَهُ عنْ فعلِ

سحب رابع

الباطلِ والعبثِ. فكيفَ يقولُ الباطلَ والعبثَ ويتكلَّمُ بكلامٍ ينزلهُ على خلقهِ لا يريدُ بهِ إفهامهم؟![1].

الرابع عَشَرَ: أنَّ الله ﷻ تحدَّى العربَ بالقرآنِ، ولوْ لمْ تكنْ معانيه معلومةً لديهم لمْ يصحَّ أنْ يتحدَّاهم بهِ.

الخامس عَشَرَ: إنَّ الصَّحابةَ والتَّابِعينَ قد تكلَّموا في معاني آياتِ الصفاتِ بل قدْ فَسَّروا جميعَ القرآنِ وعلِموا معانيه.

قال شيخ الإسلام ؒ: «فالسَّلفُ مِنَ الصَّحابةِ والتابعينَ وسائرِ الأمَّةِ قدْ تكلَّموا في جميعِ نصوصِ القرآنِ: آياتُ الصفاتِ وغيرهَا، وفسَّروها بما يوافقُ دلالتها وبيانها، ورووا عَنِ النبيِّ ﷺ أحاديثَ كثيرةً توافقُ القرآنَ، وأئمَّةُ الصَّحابةِ في هذا أعظمُ منْ غيرهم»[2].

قال ابنُ مسعود ؓ: «والله الذي لا إلَه غيرُه ما أنزلت سورةٌ منْ كتابِ الله إلَّا أنا أعلمُ أينَ أنزلتْ، ولا أنزلتْ آيةٌ منْ كتابِ الله إلَّا أنَا أعلمُ فيما أنزلتْ، ولو أعلمُ أحداً أعلَمَ مني بكتاب الله تبلغه الإبلُ لركِبْتُ إليه»[3].

وقال ؓ: «كُنَّا إذا تَعَلَّمْنَا من النَّبيِّ ﷺ عشرَ آيات مِنَ القرآنِ لم نتعلَّم مِنَ العشرِ الذي نزلت بعدها حتَّى نعلم ما فيه»[4].

فالصَّحابة ﭫ نقلوا عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّهم كانوا يتعلَّمُون منهُ التفسيرَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

(٤) رواه الحاكم (١/ ٥٥٧) وصححه ووافقه الذهبي.

سحب رابع

مَعَ التلاوةِ، ولم يذكرْ أحدٌ منهم عنه قطُّ أنه امتنع من تفسير آية[1].

فمنْ قالَ إنَّ جبريلَ عليه السلام ومحمداً ﷺ والصَّحابةَ والتابعينَ وسلفَ الأمَّةِ كانوا يقرءونَ نصوصَ الصِّفاتِ ولا يعرفونَ لها معنًى بلْ معناها ممَّا استأثرَ الله بهِ فقدْ كذبَ على القومِ، والنُّقولُ المتواترةُ عنهم تكذِّب هذا الزعمَ[2].

السَّادس عَشَرَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٥]. فلولَا أنَّهم عرفوا معنى ما أنزلَ كيفَ عرفوا أنَّه حقٌ أو باطلٌ، وهل يحكمُ على كلامٍ لم يُتَصَوَّر معناه أنَّهُ حقٌّ أو باطلٌ؟[3].

السابعُ عَشَرَ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾ [الطارق: ١٣] أي: فاصلٌ يفصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ، فكيفَ يكونُ فصلاً إذا لم يكنْ إلى معرفةِ معناه سبيلٌ؟[4].

الثامنُ عَشَرَ: أنَّ الله سبحانه وتعالى يَسَّرَ القرآنَ للذِّكرِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧]. وتيسيرُهُ للذِّكرِ يتضمَّنُ أنواعاً مِنَ التيسيرِ:

إحداها: تيسيرُ ألفاظهِ للحفظِ.

الثاني: تيسيرُ معانيهِ للفهمِ.

الثالث: تيسيرُ أوامرهِ ونواهيهِ للامتثالِ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٢٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٢٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٣٢).

سحب رابع

ومعلومٌ أنَّه لو كانَ بألفاظٍ لا يفهمهَا المخاطَبُ، لم يكنْ ميسَّراً لهُ، بلْ كانَ معسَّراً عليهِ، فهكذا إذا أريدَ مِنَ المخاطَبِ أنْ يفهمَ مِنْ ألفاظهِ ما لا يدلُّ عليهِ مِنَ المعاني، أو يدلُّ على خلافهِ فهذا منْ أشدِّ التعسيرِ، وهوَ منافٍ للتيسيرِ؛ فإنَّه لا شيءَ أعسرُ على الأمَّةِ منْ أنْ يرادَ منهمْ أن يفهموا منْ آياتِ الصِّفاتِ ما لا تدلُ عليهِ، بل تَدلُّ على خلافهِ ويقولُ: اعلموا يا عبادي أنِّي أردتُ منكم أنْ تعلموا أنِّي لستُ فوقَ العالمِ، ولا تحتَهُ، ولا فوقَ عرشي، ولا ترفعُ الأيدي إليَّ ولا يعرجُ إليَّ شيءٌ، ولا ينزلُ منْ عندي شيءٌ منْ قولي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. ومن قولي: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. ومنْ قولي: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]. ومنْ قولي: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. ومنْ قولي: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]. ومنْ قولي: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ومنْ قولي: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]. ومنْ قولي: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]. ومنْ قولي: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. ومنْ قولي: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

فإنَّكم إذا فهمتم منْ هذهِ الألفاظِ حقائقهَا وظواهرهَا فهمتم خلافَ مرادي منها، بلْ مرادي منكم أنْ تفهموا منها ما يدلُّ على خلافِ حقائقهَا وظواهرهَا. فأيُّ تيسيرٍ يكونُ هناكَ وأيُّ تعقيدٍ وتعسيرٍ لم يحصلْ بذلكَ، ومعلومٌ أنَّ خطابَ الرجلِ بما لا يفهمهُ إلَّا بترجمةٍ أيسرُ عليهِ منْ خطابهِ بما كلِّفَ أنْ يفهمَ منهُ خلافَ موضوعهِ وحقيقتهِ بكثيرٍ. فإنَّ تيسيرَ القرآنِ منافٍ لطريقةِ النُّفاةِ المحرِّفينَ أعظمُ منافاةٍ[1].

(١) الصواعق (ص٣٣٠ ـ ٣٣٦).

سحب رابع

الذينَ يقولونَ إنَّ آياتِ الصِّفاتِ ظاهرهَا التَّشْبيهُ فنفوِّضُ أو نؤوِّلُ، كمَا قالَ قائلهم:

وكُـلُّ نَـصٍّ أَوْهَـمَ الـتَّـشْـبِـيـهَـا أَوِّلْـهُ أو فَـوِّضْ ورُمْ تَـنْـزِيـهـا

فمنْ تدبَّرَ القرآنَ، وعرفَ مقصودَ القرآنِ: تبيَّن لهُ المرادُ، وعرفَ الهدى والرسالةَ، وعرفَ السَّدادَ مِنَ الانحرافِ والاعوجاجِ[1]، وتبيَّنَ لهُ بُطْلانُ قولِ منْ يقولُ: إنَّ آياتِ الصِّفاتِ مِنَ المتشابَه.

والـحَـقُّ أَبْـلَـجُ لا تَـزِيـغُ سَـبِـيـلُـهُ والـحَـقُّ يَـعْـرِفُـهُ ذوُو الأَلْـبَـابِ[2]

❀ ❀ ❀

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٤).

(٢) منع جواز المجاز (ص٦٢).

سحب رابع

كَلَامٌ نَفِيسٌ لِشَيْخِ الإِسْلَامِ في العُلُوِّ والفَوْقِيَّةِ

لقدْ كثرت الافتراءاتُ والأكاذيبُ والأباطيلُ على علمِ الأعلامِ، وشامةِ الشامِ، صاحبِ العلمِ الغزيرِ، والرأيِّ السَّديدِ، شيخِ الاسلامِ بحقٍّ لقاهُ الله رضوانهُ وأسكنهُ فسيحَ جنانهِ.

وخلاصةُ الافتراءاتِ تدورُ حولَ اتِّهام شيخِ الاسلامِ بالتَّجسيمِ والتَّشبيهِ، وبأنَّهُ يقولُ بجلوسِ الرحمنِ على العرشِ، وبنزولهِ إلى السَّماءِ الدنيا كنزولِ المخلوقِ.

ومن افترائهم عليه: ما ذكرهُ الكتاني في كتابه: «فهرس الفهارس» نقلاً عنْ أبي عبد الله المقري حيثُ قالَ عنْ شيخ الإسلام: كانَ لهُ مقالاتٌ شنيعةٌ منْ إمرارِ حدثِ النزولِ على ظاهرهِ وقوله فيه: كنزولي هذا[(١)].

ومن ذلك: ما يدعيهِ أبو بكر الحصني في كتابه: «دفع شبه منْ شبَّه وتمرد» (ص٤١): أنَّ ابن تيميةَ كانَ يجلسُ في صحنِ الجامع الأموي فذكر ووعظ وتعرَّض لآياتِ الاستواءِ ثمَّ قال: واستوى الله على عرشه كاستوائي هذا.

وفيما يلي نوردُ قطوفاً دانيةً منْ كلامهِ، وظلالاً وارفةً منْ بيانهِ، تتضمنُ دفاعاً عنهُ.

---

(١) فهرس الفهارس (١/ ٢٧٧).

سحب رابع

١ ـ إنَّ اللهَ تعالى فوقَ العالمِ مباينٌ لهُ، والمخلوقاتُ لا تحصرهُ ولا تحوزهُ **ولا يفتقرُ إلى العرشِ** ولا غيرِهِ، مَعَ أنَّهُ عالٍ عليهَا مباينٌ لها، وليسَ مماثلاً لها، ولا يجوزُ عليهِ ما يجوزُ عليها[١].

٢ ـ إنَّ الله تعالى فوقَ العرش، وليسَ هو داخلاً في العرشِ، ولا هوَ مفتقرٌ إلى العرشِ؛ **بل هوَ الحاملُ بقوَّتهِ للعرشِ ولحملةِ العرشِ**، فكيفَ يلزمُ على هذا أنْ يكونَ داخلاً في العرشِ أو مفتقراً إليهِ؟![٢].

٣ ـ الخالقُ ﷻ فهو الغنيُّ عمَّا سواهُ، فلا يفتقرُ في شيءٍ منْ ذاتهِ وصفاتهِ وأفعالهِ إلى أمرٍ منفصلٍ عنهُ، بلْ كلُّ ما كانَ منفصلاً عنهُ فهوَ مفتقرٌ إليهِ، وهوَ سبحانهُ غنيٌّ عَنْ ذلكَ المنفصلِ الذي هو مفتقرٌ إليهِ، فلا يحتاجُ فيمَا يجددُهُ منْ أفعالهِ القائمةِ بنفسهِ التي يريدهَا ويقدرُ عليهَا إلى أمرٍ مستغنٍ عنهُ[٣].

٤ ـ إنَّ الله لا يماثلُ غيرهُ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ حتَّى يتساويا في حكمِ القياسِ، بل هو سبحانهُ أحقُّ بكلِّ حمدٍ، وأبعدُ عنْ كلِّ ذمٍّ، فمَا كانَ منْ صفاتِ الكمالِ المحضةِ التي لا نقصَ فيهَا بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، فهو أحقُّ به منْ كلِّ ما سواهُ، وما كانَ منْ صفاتِ النَّقصِ فهوَ أحقُّ بتنزيههِ عنهُ منْ كلِّ مَا سواهُ[٤].

٥ ـ الرُّوحُ توصفُ بأنَّها تعرجُ إذا نامَ الإنسانُ، وهيَ مَعَ هذا في بدنِ صاحبها لمْ تفارقهُ بالكليَّةِ... فهذا الصُّعودُ الذي توصفُ به الرُّوحُ لا يماثلُ صعودَ المشهوداتِ، فإنَّها إذا صعدتْ إلى مكانٍ فارقتْ الأوَّلَ

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣١٥).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٣٢).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٥٤).

سحب رابع

بالكليَّةِ، وحركتهَا إلى العلوِّ حركةُ انتقالٍ منْ مكانٍ إلى مكانٍ، وحركةُ الرُّوحِ بعروجهَا وسجودهَا ليسَ كذلكَ.

فالرَّبُّ سبحانهُ إذا وصفهُ رسولهُ ﷺ بأنَّهُ ينزلُ إلى سماءِ الدنيا كلَّ ليلةٍ، وأنَّهُ يدنو عشيةَ عرفةَ إلى الحجَّاجِ: لم يلزمْ منْ ذلكَ أنْ تكونَ هذه الأفعالُ منْ جنسِ ما نشاهدهُ منْ نزولِ هذهِ الأعيانِ المشهودةِ، حتَّى يقالَ: ذلكَ يستلزمُ تفريغَ مكانٍ وشغلَ آخر، فإنَّ نزولَ الرُّوحِ وصعودها لا يستلزمُ ذلكَ فكيفَ بربِّ العالمينَ؟! وكذلكَ الملائكةُ لهم صعودٌ ونزولٌ منْ هذا الجنسِ.

فلا يجوزُ نفيُ ما أثبتهُ الله ورسولهُ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ، ولا يجوزُ تمثيلُ ذلكَ بصفاتِ المخلوقاتِ، لا سيَّما ما لا نشاهدهُ مِنَ المخلوقاتِ. فإنَّ ما ثبتَ لمَا لا نشاهدهُ مِنَ المخلوقاتِ مِنَ الأسماءِ والصفاتِ ليسَ مماثلاً لما نشاهدهُ منها فكيفَ بربِّ العالمينَ الذي هو أبعدُ عنْ مماثلةِ كلِّ مخلوقٍ منْ مماثلةِ مخلوقٍ لمخلوقٍ؟! وكلُّ مخلوقٍ فهوَ أشبهُ بالمخلوقِ الذي لا يماثلهُ مِنَ الخالقِ بالمخلوقِ ﷻ عمَّا يقولُ الظالمونَ علواً كبيراً[1].

٦ ـ الذي يجبُ القطعُ بهِ أنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في جميع ما يصفُ بهِ نفسهُ، فمنْ وصفهُ بمثلِ صفاتِ المخلوقينَ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ فهوَ مخطيءٌ قطعاً كمنْ قالَ: إنَّهُ ينزلُ فيتحرَّكُ وينتقلُ كمَا ينزلُ الإنسانُ مِنَ السطحِ إلى أسفلِ الدَّارِ كقولِ مَنْ يقولُ: إنَّهُ يخلو منهُ العرشُ، فيكونُ نزولهُ تفريغاً لمكانٍ وشغلاً لآخرَ. فهذا باطلٌ يجبُ تنزيهُ الرَّبِّ عنهُ... فإنَّ الله ﷻ أخبرَ أنَّهُ الأعلى وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

سحب رابع

ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]. . . فهو سبحانهُ الأعلى منْ كلِّ شيءٍ، كما أنَّهُ أكبرُ منْ كلِّ شيءٍ، فلو صارَ تحتَ شيءٍ منَ العالمِ لكانَ بعضُ مخلوقاتهِ أعلى منهُ، ولمْ يكنْ هوَ الأعلى، وهذا خلافُ ما وصفَ بهِ نفسهُ[(١)].

٧ ـ **علوُّه على العرشِ وعلى غيرِه من المخلوقاتِ لا يوجبُ افتقارَهُ إليهِ**، فإنَّ السَّمَاءَ عاليةٌ على الأرضِ وليستْ مفتقرةً إليهَا، والهواءُ عالٍ على الأرضِ وليسَ مفتقراً إليهَا، وكذلكَ الملائكةُ عالونَ على الأرضِ وليسوا مفتقرينَ إليها. فإذا كانَ المخلوقُ العالي لا يجبُ أنْ يكونَ مفتقراً إلى السَّافلِ، **فالعليُّ الأعلى، الخالقُ لكلِّ شيءٍ، الغنيُّ عنْ كلِّ شيءٍ، أوْلى أنْ لا يكون مفتقراً إلى المخلوقاتِ مع علوِّه عليها**[(٢)].

٨ ـ إنَّ الله فوقَ سماواتهِ على عرشهِ بائنٌ منْ خلقهِ، امتنعَ أنْ يكونَ محصوراً أو محاطاً بشيءٍ موجودٍ غيره. . . ويمتنعُ أيضاً أنْ يكونَ محتاجاً إلى شيءٍ منْ مخلوقاتهِ؛ لا عرشٍ ولا غيرهِ، **بلْ هوَ بقدرتهِ الحاملُ للعرشِ ولحملتهِ**، فإنَّ البائنَ عَنِ المخلوقاتِ العالي عليهَا يمتنعُ أنْ يكونَ في جوفِ شيءٍ منها[(٣)].

٩ ـ العرشُ إذا سُمِّيَ جهةً ومكاناً وحيِّزاً، فالله تعالى هو ربُّهُ وخالقُهُ، **والعرشُ مفتقرٌ إلى الله افتقارَ المخلوقِ إلى خالقهِ**، والله غنيٌّ عنهُ مِنْ كلِّ وجهٍ[(٤)].

---

(١) شرح حديث النزول (ص٤٥٩).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣١٣).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٥ ـ ١٦).
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٧).

سحب رابع

١٠ ـ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ يثبتونَ أنَّ اللهَ على العرشِ، وأنَّ حملةَ العرشِ أقربُ إليهِ ممَّنْ دونهم، وأنَّ ملائكةَ السَّماءِ العليا أقربُ إلى الله مِنْ ملائكةِ السَّماءِ الثانية[(١)]، وأنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا عُرجَ بِهِ إِلَى السَّماء صارَ يزدادُ قرباً إلى ربِّهِ بعروجهِ وصعودهِ، وكانَ عروجُهُ إلى الله، لا إلى مجرَّدِ خَلقٍ من خلقهِ، وأنَّ روحَ المصلِّي تَقربُ إلى الله في السُّجودِ، وإنْ كانَ بدنهُ متواضعاً. وهذا هوَ الذي دلَّتْ عليهِ نُصوصُ الكتابِ[(٢)].

١١ ـ إنَّ النُّصوصَ كلَّها دلَّتْ على وصفِ الإلهِ، بالعلوِّ والفوقيِّةِ على المخلوقاتِ، واستوائهِ على العرشِ.

فيظنُّ المتوهِّمُ أنَّهُ إذا وُصِفَ بالاستواءِ على العرشِ: كانَ استواؤهُ كاستواءِ الإنسانِ على ظهورِ الفلكِ والأنعامِ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٣] فيتخَيَّلُ أنَّهُ إذا كانَ مستوياً على العرشِ كانَ محتاجاً إليه، كحاجةِ المستوي على الفلكِ والأنعامِ، فلو انخرقتِ السفينةُ لسقطَ المستوي عليهَا، ولو عثرت الدَّابَّةُ لخرَّ المستوي عليها. فقياسُ هذا أنَّه لو عدمَ العرشُ لسقطَ الرَّبُّ تباركَ وتعالى.. وكانَ هذا الخطأُ منْ خطئهِ في مفهومِ استوائهِ على

(١) قال الدارمي في «النقض» (ص٢٩٠ ـ ٢٩١): «كلّ ما كان إلى السّماء أقْرب كان إلى الله أقْرب، وقرب الله إلى جميع خلقه أقْصاهم وأدْناهم واحد لا يبعد عنه شيء من خلقه، وبعض الخلق أقْرب إليه من بعض... وكذلك قرب الملائكة من الله، فحملة العرش أقْرب إليه من جميع الملائكة ـ الذين في السموات كلّها ـ، والعرش أقْرب إليه من السّماء السابعة، وقرب الله إلى جميع ذلك واحد. هذا معقولٌ مفْهومٌ إلَّا عند منْ لا يؤمن بأنَّ فوق العرش إلهاً».

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٧).

سحب رابع

العرشِ، حيثُ ظنَّ أنَّهُ مثلُ استواءِ الإنسانِ على ظهورِ الأنعامِ والفلكِ.

وليسَ في هذا اللَّفظِ ما يدلُّ على ذلكَ، لأنَّه أضافَ الاستواءَ إلى نفسهِ الكريمةِ كمَا أضافَ إليهَا سائرَ أفعالهِ وصفاتهِ. . .فلمْ يذكر استواءً مطلقاً يصلحُ للمخلوقِ، ولا عامّاً يتناولُ المخلوقَ، كما لمْ يذكر مثلَ ذلكَ في سائرِ صفاتهِ، وإنَّما ذكرَ استواءً أضافهُ إلى نفسهِ الكريمةِ.

فلو قُدِّر ـ على وجهِ الفرضِ الممتنع ـ أنَّه مثلُ خلقهِ ـ تعالى الله عنْ ذلكَ ـ لكانَ استواؤهُ مثلَ استواءِ خلقهِ، أمَّا إذا كانَ هو لَيسَ مماثلاً لخلقهِ، **بلْ قدْ عُلِمَ أنَّهُ الغنيُّ عَنِ الخلقِ، وأنَّهُ الخالقُ للعرشِ ولغيرِه، وأنَّ كلَّ ما سواهُ مفتقرٌ إليهِ، وهو الغنيُّ عن كلِّ ما سواهُ**، وهو لمْ يَذْكُرْ إلَّا استواءً يَخُصُّهُ، لمْ يَذْكُرِ استواءً يتناولُ غيرَهُ ولا يصلحُ لهُ، كما لمْ يذكرْ في علمهِ وقدرتهِ ورؤيتهِ وسمعهِ وخلقهِ إلَّا ما يختصُّ بهِ، فكيفَ يجوزُ أنْ يُتوهَّمَ أنَّه إذا كانَ مستوياً على العرشِ كانَ محتاجاً إليهِ، وأنَّه لوْ سقطَ العرشُ لخرَّ منْ عليهِ! ﷻ عمَّا يقولُ الظالمونَ والجاحدونَ علوّاً كبيراً.

هلْ هذا إلَّا جهلٌ محضٌ وضلالٌ ممَّن فهمَ ذلكَ وتوهَّمهُ، أو ظنَّهُ ظاهرَ اللَّفظِ ومدلوله، أو جوَّز ذلكَ على ربِّ العالمينَ الغنيِّ عنِ الخلقِ! بلْ لوْ قُدِّرَ أنَّ جاهلاً فهمَ مثلَ هَذَا، وتوهَّمهُ، لَبُيِّنَ لهُ أنَّ هذا لا يجوزُ، وأنَّهُ لمْ يدلَّ اللَّفظُ عليهِ أصلاً، كمَا لمْ يدلَّ على نظائرهِ في سائرِ ما وصفَ بهِ الرَّبُّ نفسهُ[١].

١٢ ـ إنَّ الله تعالى خلقَ العالمَ بعضهُ فوقَ بعضٍ، ولمْ يجعلْ عالِيَهُ مفتقراً إلى سافلهِ. فالهواءُ فوقَ الأرضِ، وليسَ مفتقراً إلى أنْ

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٤٩ ـ ٥١).

سحب رابع

تحملهُ الأرضُ، والسَّحابُ أيضاً فوقَ الأرضِ، وليس مفتقراً إلى أنْ تحملهُ، والسَّماواتُ فوقَ الأرضِ وليستْ مفتقرةً إلى حملِ الأرضِ لها.

فالعليُّ الأعلى ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكهُ إذا كانَ فوقَ جميعِ خلقهِ: كيفَ يجبُ أنْ يكونَ محتاجاً إلى خلقهِ، أو عرشهِ! أو كيفَ يستلزمُ علوُّه على خلقهِ هذا الافتقارَ وهوَ ليسَ بمستلزمٍ في المخلوقاتِ! وقدْ عُلِمَ أنَّ ما ثبتَ لمخلوقٍ منَ الغِنى عنْ غيرهِ فالخالقُ ﷻ أحقُّ بهِ وأولى[1].

١٣ ـ قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] إنَّه على ظاهرهِ لمْ يقتضِ ذلكَ أنْ يكونَ ظاهرهُ استواءً كاستواءِ المخلوقِ[2].

١٤ ـ لله تعالى استواءٌ على عرشهِ حقيقةً وللعبدِ استواءٌ على الفلكِ حقيقةً، **وليسَ استواءُ الخالقِ كاستواءِ المخلوقينَ**، فإنَّ الله لا يفتقرُ إلى شيءٍ ولا يحتاجُ إلى شيءٍ، بل هو الغنيُّ عنْ كلِّ شيءٍ.

واللهُ تعالى يحملُ العرشَ وحملتهُ بقدرتهِ، ويمسكُ السماواتِ والأرضَ أنْ تزولا. فمنْ ظنَّ أنَّ قولَ الأئمَّةِ: إنَّ الله مستوٍ على عرشهِ حقيقةً يقتضي أنْ يكونَ استواؤهُ مثلَ استواءِ العبدِ على الفلكِ والأنعام، لزمهُ أنْ يكونَ قولُهم: إنَّ الله لهُ علمٌ حقيقةً، وسمعٌ حقيقةً، وبصرٌ حقيقةً، وكلامٌ حقيقةً، يقتضي أنْ يكونَ علمهُ وسمعهُ وبصرهُ وكلامهُ مثلَ المخلوقينَ وسمعهمْ وبصرهمْ وكلامهمْ[3].

١٥ ـ مَنْ قالَ: إنَّ عِلْمَ الله كعلمي، أو قدرتهُ كقدرتي، أو كلامهُ مثلُ كلامي، أو إرادتهُ ومحبتهُ ورضاهُ وغضبهُ مثلُ إرادتي ومحبتي

(١) الرسالة التدمرية (ص٨٤ ـ ٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٩).

سحب رابع